روايات عبير

أميرة الورد

آن ميثر

صحراء الثلج

٤٧

liilas.com

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 47

www.liilas.com

صحراء الثلج

أرادت [illegible] أن تفكر في الوضع القلق الذي تعيشه منذ زواج أبيها بالأرملة [illegible] ما جعلها [illegible] والسفر الى [illegible] ثروة جديدة أرادت أن تخرج من الطوق المضروب حولها وأن ترى من بعيد شريط [illegible] والمستقبل المتوقع لها كما أراده والدها [illegible] من الثلج [illegible] [illegible] [illegible] تطلب منها الرحيل والعودة الى [illegible] [illegible] [illegible] ... أم تخرج إليه في المستشفى حيث ينتظر عملية جراحية حاسمة؟

أميرة الورد

لبنان	[illegible]	الكويت	[illegible]	اليمن	[illegible]	السودان	[illegible]
سورية	[illegible]	الامارات	[illegible]	تونس	[illegible]	U.K.	£ 1
الأردن	[illegible]	البحرين	[illegible]	ليبيا	[illegible]	France	F 10
العراق	[illegible]	قطر	[illegible]	المغرب	[illegible]	Greece	Drs 120
السعودية	[illegible]	عمان	[illegible]	مصر	[illegible]	Cyprus	£ 1

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية
LEOPARD IN THE SNOW

© ANNE MATHER 1974
© 1982 Harlequin (Cyprus) Ltd.
حقوق التأليف-آن ميثر
جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس والترجمة محفوظة
لهارلكوين (قبرص) المحدودة

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St,
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd. Bungay, Suffolk

أميرة الورد

١ - ضائعة في الثلج

السكان المحليون يراقبون وينتظرون رحيل الزائرين وهي تتذكر تلك البقعة من منطقة البحيرات لما كان والدها يمتلك مركباً في بارنيس عندما كانوا يقطنون في لندن وكانوا يرجعون إلى تلك المنطقة بعد انتهاء العام الدراسي كان والدها يعلمها قيادة المركب وربما هيلين تستعيد الماضي كانت تبدو لها تلك الفترة من أجمل أيام حياتها كان ذلك قبل أن يصبح والدها طموحاً ويوافق على الانضمام لشركته الصغيرة إلى شركة [illegible] القدسية ويتزوج أرامل [illegible] ويصبح رجلاً غنياً لا [illegible] بالحفلات [illegible] ورياضة [illegible] من رياضة التزلج.

لكن الجبال كانت في هذا الوقت بيضاء لا يعني أن الثلوج كانت تتساقط منذ عدة أيام وحتى البحيرات كانت مغطاة بطبقة رقيقة ناصعة وعندما توقفت هيلين عند آخر قرية مرت بها لتسأل عن طريق بارنيس كانت قد ابتعدت كثيراً عن الدرب الأصلي ولم يكن هذا بمستغرب لأن كل اللافتات التي توضح الطريق مغطاة بالثلوج ولم تحاول الخروج من سيارتها الدافئة لتمسح الجليد عن اللافتات لتستوضح طريقها إنها تعرف الآن بخطئها لكن ذاكرتها لم تستطع أن تستعيد عشرات الطرق الفرعية وخاصة أنها تبدو جميعاً متشابهة في ظروف الطقس السيئة ولا بد أنها اتخذت الكثير من المنعطفات الخاطئة.

بعد ذلك تذكرت والدها في الغد سيكتشف أنها تغيبت ليلاً بأكمله؟ هل سيكتفي بالرسالة التي كتبتها له شارحة حاجتها للانفراد بعض الوقت، أم سيحاول البحث عنها إلى الأسبوع الأخير من الأسبوع والدها ليس ذلك النوع

www.liilas.com

من الرجال الذي يمكن أن يقف في طريقه. وهو بلا شك سيغضب بشدة الآن لابنته الوحيدة الغالية أن تبتعد.

لكن التساؤلات تعود عليها ضعيفة. إنها تهرب نفسيا بتركيزها في الذهاب بعيدا. كانت الأماكن التي تشغل تفكيرها في السنوات الأخيرة من هذه القرية وجنوب فرنسا. لهذا كان والدها سيبحث عنها سيكون ذلك في الأماكن السابقة لأنه يعلم أنها تحب الشمس والسباحة والمراكب الشراعية. ولن يتوقع أبدا أن تتذكر ذلك الفندق الصغير الذي أخذها إليه وهي طفلة في السنوات التي تلت وفاة والدتها وهو بالتأكيد لن يتوقع أن تقود سيارتها في هذه العاصفة الثلجية العنيفة.

وقطبت جبينها وقالت لنفسها إذا كان هذا الطريق يؤدي إلى مزرعة فيمكنها أن تطرق الباب، وتستفسر عن كيفية الوصول إلى أقرب قرية. إنها لا تتوقع الآن أن تصل إلى «باريس» الليلة بالذات.

وأوقفت السيارة بدون أن توقف المحرك، وراحت تزيل الثلج الذي تراكم على الماسحات، والتصق الثلج بأصابعها وشعرت بالبرودة الشديدة ثم ركبت السيارة مرة أخرى وهي تشعر أنها خاطرت بحضورها في السيارة. ولهذا كان من الأفضل أن تسافر بالقطار لكنها لم تكن تريد أن تخاطر بأن يتعرف عليها أحد في المحطة ويخبر والدها عندما يكتشف غيابها ويبدأ في السؤال والبحث عنها.

توقفت الماسحات مرة أخرى. وكانت مضطرة إلى النزول لتنظيفها. كانت في المرة الأولى قد نظفت الماسحات وهي مستندة إلى الباب لكنها في هذه المرة أخذت تمشي خلالها الطريق لا تصل السيارة. وربما هي تفعل ذلك توقف محرك السيارة.

نزلت من السيارة ووقفت وسط الثلج الكثيف الذي كان يلامس طرف سروالها الأحمر القطني إلى أعلى. والتصق بحذاء وتحرك على أقدامها وهي تنظف الثلج بسرعة عن الزجاج الأمامي لتطمئن إلى أن الماسحات ستعمل ولم تلبث العربة استغرقت بعض لحظات أخرى في فتح ملامحها الطريق ثم أدارت مفتاح الاشتعال. دار المحرك ولكن السيارة لم تتحرك. حاولت مرة أخرى بلا فائدة. انحرفت

بالخوف يسري في عروقها ما العمل الآن في محطة السيارة. هذا لم يحدث من قبل فالسيارة ليست قديمة ولكنها لم تواجه مثل هذه الظروف من قبل. وبعد محاولات أخرى توقفت. وكان الوقت يتأخر وبعد قليل سيحل الظلام وهي لا تستطيع المجازفة بالبقاء في هذا المكان على أمل كاذب أن يأتي أحد لإنقاذها. لم تكن هناك أية إشارة إلى أن أحدا قد يسلك الطريق. وقررت أن التصرف الأسلم بالنسبة إليها هو أن تترك السيارة وتبحث عن المساعدة. لأنها لو بقيت ولم يحضر أحد لمساعدتها من الممكن أن تتراكم الثلوج طوال الليل إلى أن تدفنها تماما.. سمعت عن أناس فقدوا حتى الموت في هذه الطريقة. وأخذت ترتعش عندها مرة أخرى وهي تقول لنفسها إنها مغامرة مثيرة. فتاة وقع زوجها العقرية. من كان يتصور، عندما تركت المنزل هذا الصباح أنها ستكون ضحية سيارة معطلة في عاصفة ثلجية؟ إن تعيدها لنفسها على رأسها في الأعطاف وعدم إمكان والدها العثور عليها ستنقلب ضدها رأسا على عقب.

خرجت من السيارة وهي ترتدي معطفها الأحمر الثقيل المصنوع من القماش والمبطن بالفراء، وأخذت تطمئن نفسها إلى أن اللون الأحمر يظهر جيدا بين الثلج ومن الممكن أن يلفت نظر أحد حتى لو لم تر شيء. رفعت القلنسوة لتغطي على رأسها وأخفت بداخلها خصلات شعرها الأسود الطويل. ثم لبست قفازها المصنوع من الفراء، وأخذت سيرها حتى ركبتيها وأخذت تخوض بعيدا.

ونظرت إلى الطريق المهجور. كان من غير المجدي أن تعود أدراجها لأنها كانت تعلم أنها لن تقابل أحدا لعدة أميال. إذن فلا مفر من التقدم.

وكانت تقول لنفسها إنه ليس ممكنا أن يسير كل هذه المسافة بدون أن تقابل أي منزل أو إنسان ولكن هذا ما حدث فعلا. هذا الطريق المتعرج سبب السيارة بسرعة عن نظرها وبين الممكن أنه يقف منزل أسد الجبال. إنها تشعر بأنها تصعد جبلا الآن. ساقيها تؤلمانها ولكن ليس أمامها طريق آخر.

ثم توقفت ونظرت إلى ورائها ولم يكن ممكنا رؤية أي شيء. اختفت طريقها تماما وربما واضحا أن اللون الرمادي الذي بدأ يظهر في السماء لم يكن بسبب الظروف الجوية السيئة فقط ولكن بسبب الليل الذي بدأ يقبل والأمل في العثور على مكان تبيت

liilas.com

لكنه لا يبدو كبيراً وشعرت بالذعر. ماذا ستفعل؟ هل ينتقم منها القدر لأنها تخلت عن واجبها في أن تختار لها زوجاً؟

ولمحت أن شيئاً ما يتحرك، وبطرف عينيها رأت أنه شيء مقوس وأطلقت صيحة. ماذا كان ذلك؟ من المحتمل أنه حيوان يبحث عن طعامه. يا للحيوان المسكين! أي طعام يمكن أن يجده تحت كل هذه الثلوج؟ رفعت يدها لتحمي عينيها من الثلوج المتساقطة وحاولت أن ترى. تأكدت أنه حيوان وقد يكون معطفها الأحمر لفت نظره. قد يكون كلباً. إنها ترجو ذلك. وقد يكون صاحبه قريباً. وأخذت تصلي وتأمل.

كان هذا الكائن يقترب نحوها إنه يبدو ككلب. لكنه أضخم. قريب وأثناء اقترابه رأت أن له بطناً أسود أيضاً. لا بد أنه نوع من الكلاب الشتائية الضخمة. وفجأة شعرت بأن ساقيها لا تقويان على حملها والخوف والرعب يستوليان عليها. ليس كلباً. إنه ليس حيواناً أليفاً. إنه [illegible] الفروع. تسمرت في مكانها ولم تستطع حراكاً. تلك الثنية الشعثة بلا صوت ترعبها. حركت رأسها يساراً ويمنة لا أحد في كل مكان. لا بد أنها تحلم أو تتخيل. لا بد أن بياض الثلج اللامع جعلها تتخيل ذلك. لا يمكن أن يكون حقيقة. إنه لا يصدر أي صوت.

ولكن باقترابه استطاعت أن ترى أكتافه القوية وعضلاته المتحركة تحت شعره الناعم. وتصورت أنها تشعر حتى بحرارة أنفاسه. فتملكها رعب ثم ارتكبت التصرف الخاطئ الذي تعلمت دائماً ألا تفعله في مواجهة حيوان مهاجم. استدارت لتركض...

تعثرت في الفروع المتساقطة إلى جانب الطريق وشقت طريقها خلال الشجر الكثيف وهي تشعر بالأغصان تجذب شعرها والشوك يخدش خديها معطف. ولكن لم يكن أي ألم أقوى من فكرة أن يكون الذئب خلفها في عقبها. ورائحة الخوف قوية فاندفعت للأمام ولكن الفروع المتشابكة في الظل الممتد كانت تعرقل خطوتها وكانت تتوقع أن تشعر بأنياب الذئب الحادة تنغرز في رقبتها ومخالبه ترفع بها وأحست بالاختناق وصعدت العبرات إلى عينيها وتذكرت بمرارة أنها ما كان يجب أن تترك لندن. هذه هي نتيجة التصرف الأناني...

ثم تعثرت قدمها في جحر أرنب ففقدت توازنها وسقطت. وحاولت أن تزحف وهي تبكي. وبينما هي في هذه الحال سمعت صوتاً كانت تعتقد أنها لن تسمعه مرة أخرى. صوت إنسان. صوت إنسان يصرخ آمراً غاضباً: شيبا! أيتها الشقية.

ارتخت كتفا "ميلون" ونظرت بخوف خلفها. توقفت الذئبة على بعد بضعة أقدام منها وكانت تنظر إليها بتركيز الصيد. وكان هناك رجل طويل نحيل يشق طريقه عبر الشجر وهو متشح تماماً بالسواد معطف وسروال أسود وحذاء طويل أسود. وكان رأسه عارياً. وربما كانت "ميلون" تتوهم ولكنها لاحظت أن شعره كان فاتحاً لدرجة أنه يبدو فضي اللون. لكن وجهه كان داكناً بما لا يتناسب مع لون شعره. وكان هناك شيء مألوف في ملامحه الخشنة وعينيه الخضراوين تحت أهدابه الكثيفة. وأنه [illegible] وفم واسع [illegible] وقد بدا عليها في هذه اللحظة تعبير بالازدراء وهو يقترب منها كما لاحظت أنه يسير بعرج واضح.

أدارت الذئبة رأسها عند اقترابه فوضع يده على رأسها الكبير يداعبه قائلاً لها بصوته العميق الغليظ:

«اهدأي يا شيبا».

ثم استدار نحو "ميلون" معتذراً بدون أن يبدو عليه أي أسف حقيقي:

«اعتذاراتي، ولكن ما كان يجب عليك أن تركضي لأن شيبا لم تكن ستمسك بسوء».

تضايقت "ميلون" بشدة من تعبير الازدراء الذي أبداه لأنها لم تكن معتادة على الركض خوفاً على حياتها كما أنها لم تكن معتادة الوقوف بهذه الصورة الشعثة أمام أي رجل بل بالعكس فإن جمالها وشعرها الأسود الناعم وجسمها الرشيق، كل ذلك يجعل علاقاتها بالرجال سلسة. ورغم أنها لم تكن مغرورة لكنها كانت واثقة من جمالها ومن انجذاب الجنس الآخر إليها لكن الطريقة التي كان ينظر بها هذا الرجل جعلتها تشعر كطفل متسخ [illegible] صغير وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه.

liilas.com

قالت وقد ضايقها أن صوتها يرتجف:

«كيف أتصرف إذاً لو لم توقفها الأحراش؟»

هز رأسه ببطء قائلاً:

«إن شيبا مدربة على أن تنتظر فريستها لا أن تفترسها.»

أجابت هيلين وهي تزيح الثلج عن أكمامها:

«لم أكن أعلم أني فريسة.»

«لقد ركضت.»

حاولت هيلين أن تبدو ساخرة:

«آه... لقد فهمت. وسأحاول أن أتذكر في المستقبل ألا أفعل ذلك.»

خفت حدة ملامح الرجل قليلاً وهو يقول بسخرية:

«لم نكن نتوقع أن نجد أي شيء يستحق الصيد اليوم.»

تمتمت هيلين بعصبية:

«آسفة لهذا.»

«ولماذا تقلقين من شأن الصيد.»

ونظر حوله ثم استطرد:

«هل تقومين برحلة سيراً على الأقدام حول الجبل؟»

وصعدت الدماء إلى وجنتي هيلين وقالت:

«لقد تعطلت سيارتي هناك.»

وأشارت بغموض إلى الطريق.

«وتركتها أحاول البحث عن عون عندما ظهرت فرائسك

شيبا.»

نظر الرجل إلى أسفل إلى القطة الكبيرة التي وقفت بجانبه وقال:

«شيبا ليست قطة. إنها فهد وهي من الفصيلة نفسها ويطلق عليها أحياناً اسم الفهد الصياد.»

وردت هيلين بصوت مرتعش:

«لا يهمني ما هي... هل يمكنك... هل يمكنك أن تدلني إلى أقرب هاتف كي أتصل

برفاقتي؟»

ربت الرجل على رأس الفهد وقال:

«للأسف لا يوجد أي هاتف على مقربة من هنا.»

«أليس هناك أي منزل فيه هاتف أستطيع استعماله؟»

«هناك مساكن قليلة في هذه المنطقة.»

«هل تحاول إخافتي عن عمد... أم أن هذه هي طريقتك في معاملة الغرباء؟»

تأمل الرجل شعرها غير المهذب ببرود أضايقها:

«إنني أدرك أنك في منطقة منعزلة بشكل كبير في كل حال أرحب بك في منزلي إذا كنت لا تعتبرين ذلك أمراً كريهاً.»

وترددت هيلين:

«لكن... أنا لا أعرف من أنت.»

«ولا أنا أعرفك.»

«لا... ولكن...»

«هل أنت متزوج؟ هل تعيش بمفردك؟ أنا هنا هنا... هنا الكثير؟»

«لا.»

فكرت في وقفته كأنما الوقوف طويلاً في وضع واحد يؤلم ساقه.

«أعني خادم... ولا يوجد سواك.»

فكرت هيلين في ذلك يا إلهي... أي موقف هذا أمامها إما أن تستمر في المشي في هذه الظروف الجوية الرديئة على أمل أن تجد إن عاجلاً أو آجلاً مزرعة أو مزرعة جبلية وهي مجازفة غير مأمونة أو أن تصحب هذا الرجل... هذا الغريب... إلى منزله وتقضي الليل مع اثنين من الغرباء أية مشكلة!

قال الرجل وقد بدا عليه التعب:

«أرجو أن تقرري أمرك بسرعة.»

«سأقبل ضيافتك إذا كان ذلك ممكناً على أمل الاتصال هاتفياً؟»

«سنحضرها» رد... «هيا تعالي لأن الظلام سيحل قريباً.»

liilas.com

وبدأ في السير متجهاً نحو الطريق السري، وقالت جيليان:

ـ آنسي... ألا يجب أن نتعارف؟

نظر إليها الرجل بسخرية وأجاب:

ـ أظن أن هذا يمكن تأجيله. هل تريدين أن تلحقي قدماه؟

تنهدت جيليان، هذا ليس جواباً على سؤالها، ولكنها تبعته على الممر الرملي وهي حريصة أن تبقى على بعد من الكلبة. وعندما وصلا إلى الطريق الضيق الذي زاد ضيقه بالفروع المتراكمة على جانبيه، سارت الكلبة باعتزاز في المقدمة واضطرت هي أن تسير إلى جانب الرجل، ورغم عرجه كان يتحرك بنوع من الرشاقة والمرونة ما جعلها تظن من الجائز أنه كان رياضياً في يوم من الأيام. هل كان هذا هو السبب في أن وجهه كان مألوفاً لديها لأول وهلة؟ ثم إنه كان يذكرها بشخص تعرفه؟ وحول المنعطف دخلا في طريق أضيق يتفرع من الأول. كانت عليه لافتة معلقة بالفرع تبين أن هذا طريق خاص. شعرت جيليان بشيء من القلق. إنها لا تعرف هذا الشخص وقد يأخذها إلى أي مكان. ومن الجائز أنه كذب عليها عندما أخبرها بعدم وجود هاتف عمومي في المنطقة.

وكأنه قرأ أفكارها قال:

ـ إذا كنت تفضلين العودة يمكنك أن تفعلي ذلك. أنت حرة ولن أرسل شيبا وراءك إذا كان هذا ما يخيفك.

ـ لا... شكراً أميري.

ـ حسناً.

نظر إليها الرجل نظرة جانبية فلاحظت بالصدفة أن رموشه كثيفة بشكل غير عادي وأنها غامقة وتغطي عينيه بلونها الأصفر الغريب كلون عيني شيبا، وكعيني شيبا أيضاً كان لا يمكن التنبؤ بأفكاره.

كان الطريق يصعد منعطفاً بشكل غير منتظم ثم اخترقا بوابة حديدية وسارا عبر بعض الحقول في طريق منعطف حتى منتصفه بالتفرع. ونظر الرجل لقدميه على الأرض لينفض الثلج عن حذائه، ونصحها أن تفعل مثله ودفع الباب الخشبي فانفتح، وأشار إليها بأن تدخل. نظرت جيليان بخوف نحو شيبا فقد

كانت الكلبة تراقبها بنظرة ثابتة لكنها وقفت ساكنة بجانب سيدها، وتقدمت جيليان وسبقتها داخل المبنى إلى البهو، وشعرها ملتصق بظهرها بعد الكلام. فأحست فقط في تلك اللحظة كم كانت تعاني من البرد. ثيابها الشعرية مبللة تماماً وأخذت أسنانها تصطك. وبعد دخولها ظهر رجل من الباب الخلفي للصالة، ورغم حالة الارتجاف والقشعريرة التي انتابت جيليان لم تستطع إلا أن تحملق في هذا القادم. كان في مثل طول الرجل الذي اصطحبها لكنه كان ضعفه في العرض وله جسم مصارع ذي كتفين عريضين ورأس أصلع تماماً. وألقى القادم نظرة سريعة على جيليان ثم التفت بنظره إلى الرجل الذي اصطحبها:

ـ تأخرت يا سيدي بدأت أقلق عليك.

قال ذلك وهو يشد أكمام قميصه التي كانت مطوية فوق مرفقيه.

أخذ الرجل الذي اصطحب جيليان يفك أزرار معطفه وعيناه تنظران بتأمل إلى الفتاة المرتجفة ثم علق بصوته المنخفض الجذاب:

ـ كما ترى يا بولت لدينا زائرة. تعطلت سيارة الآنسة في الطريق بالقرب منا. بعد أن تعد لنا الشاي هل يمكنك الذهاب لاحضار حاجياتها؟

فكرت جيليان أن التعبير على وجه بولت وهو يستمع إلى كلام سيده ظل تعبير شبه ثابت لكن عينيه تتحركان كأنهما رادار وأمام الرجل الذي اعتقدته أهم شيء في العالم.

أجاب بولت في شبه ابتسامة:

ـ بالطبع يا سيدي لا بد أن الآنسة ستقضي ليلتها هنا. سأجهز لها غرفة أليس كذلك؟

ـ شكراً يا بولت.

وخلع الرجل معطفه الجلدي فظهر قميصه الأسود الحريري، وصدر منه من الفتحة وتناول القادم المعطف، واستدار الرجل إلى جيليان قائلاً:

ـ يمكنك إعطاء معطفك أيضاً لبولت. وأؤكد لك أنه يستطيع أن يجففه بدون أن يصيبه أي تلف.

كانت جيليان ترتجف بشدة حتى أنها لم تستطع أن تفك أزرار معطفها

ولمحتها لفرقة الرجل الأعرج نحوها ووضع يديها المتصلبتين جانباً وأخذ يلف لها المعطف ثم رفع يديه وسحبه عن كتفيها وناوله بريت قبل أن يسقط على الأرض. لم تكن تعرف هذا الرجل ما الملامح الخشنة واللسان السليط ولم تكن تريد أن تعرفه... كان فيه شيء يقلقها ويخيفها ومع ذلك فإن لمسة يده السريعة عندما دفع يديها بعيداً جعلت النار تسري في ذراعيها كأنما أحرقتها وشعرت بالنشوة والنفور في الوقت نفسه.

وأشار بريت ودفع باباً إلى اليمين ثم تبينت أن الرجلين ينتظران أن تسبقهما فسارت بطريقة مضطربة ودخلت الغرفة وهي تقسم لنفسها بأنها في المحاولة لوقف تلك الرعشة السخيفة.

ووجدت نفسها في غرفة جلوس فسيحة مضاءة بمصابيح عادية والنار مشتعلة في المدفأة الضخمة، وكانت قطع الخشب مكومة في النار والغرفة تفوح رائحة خشب الصنوبر والأرض مغطاة ببعض الأبسطة وفي هذا بعض كراسي الثقة ومكتب وطقم من ثلاث قطع مغطاة بقماش قاتم وأطلقت عندما مرت الهوينا بجانبها وانحنت لتمتص أمام المدفأة ونظرت حولها بخوف لترى إذا كانت تجربها مع هذا الحيوان. فلفت الرجل يأتي نحوها وهو يعرج، وقد ذهب بريت إلى عمله.

- هلا جلست؟

أشار إلى الأريكة أمام المدفأة وبعد لحظة ذهبت هيلين لتجلس على طرف الكرسي بجانب المدفأة ونظر إليها بسخرية ثم جلس على الكرسي المقابل ومدّ ساقيه أمامه براحة ظاهرة. وبعد لحظة استدار ونزع غطاء القارورة وقال بعدئذ وهو يلقي عليها نظرة شاملة:

- قليل من الشراب على ما أظن يعيد حيويتك الذابلة إلى كأس يعقلك.

لم يقم ليقدم الشراب إليها ولكنه مد يده عبر المدفأة وكان على هيلين أن تأخذه. لم يكن ذلك مشروبها المفضل لكنها كانت سعيدة لأنه سيدفئها ويزيل عنها البرد. أخذت تشربه ببطء وبالتدريج ذهبت عنها الرعشة ولم يشرب رفيقها شيئاً بل استرخى في كرسيه وعينيه نصف مغلقتين أخذ يفحصها بتركيز شديد.

وقبل أن تفرغ من الشراب عاد بريت ومعه صينية الشاي، وقال:

- سأذهب الآن لإحضار الحقائب إذا أعطتني السيدة الشابة مفاتيحها.

- نعم... بالطبع.

أخرجت حلقة من الجلد فيها كل مفاتيحها وناولتها لبريت.

- أنا آسفة جداً يا بريت إنها على بعد ميل تقريباً... أوجدت السيارة.

هز بريت رأسه.

- سأجدها يا آنسة.

- شكراً.

واسترخت قليلاً في جلستها. لقد بدأ الشراب يأتي بمفعوله، وبدأت تعود إلى حالتها الطبيعية. في مثل هذا الوقت غداً قد تكون وصلت إلى باريس وتصبح هذه الواقعة التي حدثت لها مجرد ذكرى أو شيء مسل تحكيه لأصدقائها عندما تعود إلى لندن.

وبعد أن انصرف بريت اعتدل الرجل في جلسته ونظر إلى الصينية قرب إبريق الشاي وسلطانه. كان هناك طبق به بعض الفطائر وطبق الفاكهة لتثير الشهية... سألها وهو ينظر إليها بعينيه الصفراوين:

- هل تريدين سكراً وحليباً أم ليمونة؟

- أريد حليباً وبدون سكر مع الشكر.

أجابت وهي ترفض أن تستسلم للخوف بعدما استعادت ثقتها بنفسها. وبينما كان يسكب الشاي استمرت قائلة:

- ألا تظن أننا يجب أن نتعارف؟

انتهى الرجل من سكب الشاي وأضاف الحليب ثم ناولها قدح الشاي وهو يقول:

- إذا كان هذا هاماً بالنسبة إليك.

انتهت هيلين.

- هل تقصد أنك يمكن أن تدعو شخصاً غريباً تماماً ليشاركك في منزلك بدون أن تهتم بمعرفة اسم هذا الشخص؟

ـ من الجائز أني أعتبر نوع الشخص أهم من اسمه.

وقال وهو ينظر إليها بعينين ثابتتين:

ـ على سبيل المثال أنا غير محتاج لمعرفة اسمك لأعرف أنك فتاة عنيدة نوعاً ما ولا تسمع النصيحة التي تقدم إليها.

احمر وجهها وردت باحتقار:

ـ وكيف يمكنك أن تعرف ذلك؟

هز كتفيه واستطرد:

ـ ليس من المعتاد أن تقوم أنثى بمفردها بقيادة سيارتها وحدها في مثل هذه الظروف. ومن الواضح كما ذكرت أن معك حقائب مما يدل على أنك كنت تنوين البقاء في فندق أو ما شابهه.

ثم قطب جبينه وقال:

ـ من الجائز أنك رتبت لمقابلة شخص ما ـ بالطبع، ولكن لا يبدو عليك الاهتمام لمقابلته هذه الليلة.

رفعت "هيلين" ذقنها وردت:

ـ الفتيات يقمن أحياناً برحلات وحدهن ـ ألا تعلم ذلك؟

ـ في مثل هذه الظروف ليس هذا شيئاً معتاداً.

ـ قد أكون إحدى الفتيات العاملات أو فتاة قوية ما رفضت خطيبها.

ـ نعم هذا ممكن ولكن ليس محتملاً.

ـ ولماذا؟

ـ لأني لا أظن أنك فتاة عاملة.

صاحت "هيلين" بغضب حنق:

ـ ولماذا؟

ـ من الطريقة التي قابلتني بها يا بنت. وكأنك معتادة على وجود خدم حولك.

تنهدت "هيلين" وشعرت أنها في أية مناقشة معه ستكون الخاسرة. إلى جانب أنه يقدم لها ضيافته. قد يكون من الأفضل أن تكون ألطف قليلاً في البداية ثم يكون من طبيعتها أن تتصرف بهذه الطريقة الجافة ولكن شيئاً ما فيه جعل أسوأ

ما فيها يظهر.

ـ حسناً.

وأضافت أخيراً:

ـ وأنا لست فتاة عاملة هذا صحيح، واسمي "هيلين جيمس" ابنة "فيليب جيمس".

قال بسخرية وقد أخذ تقطيبة بعد أن رفعت هي:

ـ هل من المفروض أن أعرف هذا الاسم؟ للأسف أنا لست على صلة بالناس الآن.

وابتسم مما جعله يبدو أصغر سناً بكثير. وأدركت فجأة أن وجهه مألوف.

رأته من قبل... إنها متأكدة ولكن أين ومتى؟

أجبرت نفسها أن ترد على سؤاله بينما هي تفكر في هذا اللغز.

ـ والدي هو سير "فيليب جيمس" ـ وقد فازت شركته بجائزة صناعية في العام الماضي. إنها شركة "تروب" الهندسية.

وهز الرجل رأسه.

ـ باستخفاف.

قالت بصبر نافد:

ـ وأنت لم تخبرني باسمك.

ـ أخبريني أولاً ماذا تفعلين هنا بعيداً عن المجتمع الذي تعتادينه.

رفعت "هيلين" كتفيها وقالت:

ـ في الحقيقة أنا... محتاجة للذهاب بعيداً لفترة قليلة من الوقت. أحتاج لبعض الوقت لأفكر وأنا واثقة أن أبي لن يبحث عني.

وهنا قطب الرجل وقال:

ـ هل تعنين أنك هربت؟

ـ ليس كذلك. تركت لوالدي كلمة فلا حاجة به للانشغال علي.

ـ ولكنه سينشغل.

ـ ولكن.

ترتكت «مايا» بقلق وقالت:

«في أية حال هذا لا يهمك. وأنا فقط قلت لأنك جئت في الوقت المناسب ولو لم تحضر لغدت في متاعب حقيقية»

«فعلاً كان يمكن أن تبقي هناك في الثلج، وكان من المؤكد ألا تخبري أحداً إلى أين أنت ذاهبة. ألا تعرفين أنه كان من الممكن أن تعلق السيارة لأيام قبل أن يجدها أو يجدك أحد؟ أخبريني لماذا كان من المهم أن تعبري؟»

شعرت «مايا» بالسخط.

«لا أظن أن هذا يخصك في شيء»

«ومع ذلك أنا محب للاستطلاع إزاء الفضول لشخص لم يعد من سكان ذلك العالم الذي تأتين منه»

ونظرت إليه «مايا» بشدة ـ ما هذا الكلام الغريب الذي يردده بالتأكيد إن بعد هذه المنطقة في الشتاء لا يعني أنها منقطعة تماماً عن العالم الخارجي إلا إذا أراد الشخص ذلك. هزت رأسها ثم قالت بضيق:

«والدي يريد أن يتحكم في حياتي ولكني أبلغ الثانية والعشرين. ومن الجائز أن تحسبني مسقطة كما قلت. ولقد اختلفنا على مشكلة صغيرة»

«لا أظن أنها صغيرة إلى هذه الدرجة. لا تضطرك لأكثر من ماشي حيل في شتاء قارس يا آنسة «جيمس». ولكن هذا لا يهم فأنا أحترم رغبتك في الاحتفاظ بأسرارك الشخصية»

قالت لنفسها: كان هذا تنازلاً بالكاد. وأعادت قدح الشاي إلى الصينية وهي تقول:

«وأنت؟ ألا تجد المكان موحشاً في هذه المنطقة المعزولة بعيداً عن كل الناس ولا يؤنسك إلا «براندا»»

أطبقت رموشه الثقيلة عينيه:

«أنا لست إنساناً مسلياً يا آنسة «جيمس». هل أستطيع أن أقدم لك مزيداً من الشاي؟»

رفضت وهي تضغط أنامل يديها بعصبية وسألته:

«لماذا تتغاضى إذن عن سؤالي»

«هل كنت أفعل ذلك؟»

كان صوته هادئاً ولكن عينيه كانتا مترقبتين.

«أنت تعلم أنك كنت تفعل»

تنهدت وقطبت جبينها قائلة:

«أنا أعرف وجهك من مكان ما وأنا شبه متأكدة أني رأيتك من قبل. إما حقيقة أو في الأحلام»

قال ساخراً:

«إنك تطريني بشدة ـ أليس هذا دور الرجل؟»

تضايقت «مايا» لأنه جعلها تشعر بالحرج وكان ذلك تجربة جديدة بالنسبة إليها.

«إنك تعلم ما أقصد. لقد رأيت وجهك من قبل أليس كذلك؟»

بدا عليه الملل من هذا الاعتراض وفجأة قام من مكانه ووقف يحدق تحت كأنه يفكر ثم سار بخطواته عبر الغرفة نحو النافذة وسحب الستائر الثقيلة على النوافذ. ورأت «مايا» قبل أن يختفي المنظر الخارجي عن نظرها أن الثلج على وملأها الثلج المتساقط شعوراً بالعزلة.

واستدار إليها قائلاً:

«سوف لن يتأخر في إحضار عشائك وسيريك المكان الذي ستنامين فيه يا آنسة «جيمس». أنا أتناول طعام العشاء الساعة الثامنة تقريباً وآمل أن تصاحبيني»

وظلت «مايا» في مقعدها وهي تشعر بالضيق بدلاً من الخوف. واقتنعت أنه مصمم ألا يمسها من أسئلتها وجعلت مركبها الفهد ترفع رأسها والمثل.

أطلقت زفرة وخرجت دمدمة منخفضة من حلق الفهد القوي فجذبها الرجل ناحيتها وأخذ يدلها وعيناه على وجه «مايا» المضطرب ـ «أنا بصوت ناعم كالمشتعل لكن رنة خفية كالغضب.

«هل يضايقك ذلك يا آنسة «جيمس»؟»

هزت «هيلين» رأسها وهي تنظر بيأس حول الغرفة القاتمة. كان عليها أن تعترف أن الغرفة جميلة جداً ولا تثير أي شعور بعدم الراحة، ولكن هنا شيء مزعج. على الجدران بعض تذكارات الصيد من سيوف وبنادق عتيقة وعدة قطع من رسومات زخرفية ثمينة. هل هو رسام أم نحات أم فنان من أي نوع؟

وفجأة لفتت نظرها صورة في إطار معلقة على الحائط خلف المكتب. لم تستطع أن تميز كل تفاصيلها من بعيد. كانت الظلال في ضوء ضعيف، بل كانت ترى ما يكفي لتفهم أنها صورة لحادث سيارة [illegible] الرجال وأجزاء السيارات التي انقذفت في الطريق، وانتشرت القطع المعدنية في الهواء المعلق بالغبار. لم تكن صورة ملونة بل تعطي الاحساس الكامل ببشاعة ووحشية الحادث.

انتقلت نظرتها الفزعة إلى الرجل الذي كان يقف الآن جامداً بجانب الأريكة. كانت عيناه الصفراوان جامدتين وصلبتين ففهمت أنه لاحظ نظرتها المركزة على الصورة وفهمت أيضاً لماذا [illegible] أن تذكرها الملاحظة بشخصيته في البداية. وكانت [illegible] من السائقين الذين [illegible] الحادث المروع. لكنه لم يكن مجبراً عليها.

وقالت ببطء وتعجب وهي تقف على قدميها:

«أنا أعلم من أنت.. إنك.. «دومينيك لابول» بطل السباقات».

نزع السيجار من فمه النحيل واستند بيديه على ظهر الأريكة ثم قال بسخرية:

«نعم.. أنا «دومينيك لابول».. ولكني لست الآن بطل سباقات».

وحدقت فيه «هيلين»:

«ولكنك كنت كذلك.. أنا أتذكر والدي وهو يتكلم عنك.. كان معجباً بك أشد الإعجاب قبل.. قبل..»

«قبل الحادث. أعلم ذلك».

قالها بمرارة.

«ولكني أعتقد.. أقصد..»

ثم توقفت وقد انعقد حاجباها في اضطراب:

«كان الجميع يفترض أنك انطفأت.. والذي قال.. وكل الناس قالوا..»

وتوقفت بخجل ولم تكمل جملتها.

«كانوا يعتقدون أني ميت؟»

كانت لهجته ساخرة واستطرد:

«نعم أعلم تلك الاشاعة. كانت إصاباتي خطيرة وكان يلائمني أن أخلي هذا الاعتقاد فليس هناك شيء أكثر إذلالاً من بطل يسقط ويرى الكل يحاول أن يتلفظ بالأسرار».

«ولكن الأمر لم يكن كذلك..»

واعترضت «هيلين» قائلة:

«كان الصدام حادثاً مروعاً.. ولكن لا يمكن لوم أحد إن الدعاية..»

قاطعها بصوته الغاضب الساخر:

«هل قلت إني ألوم أحداً؟»

«لا، ولكن.. والدي كان من أشد المعجبين بك وكان مثل الآلاف الآخرين [illegible] بين ظل أنه من الأفضل أن تتركهم يفترضون أنك ميت».

أطفأ «دومينيك لابول» وأخذ يدلك فخذه بيده السمراء القوية.

«هل تظنين أنه ليس من حقي أن أتمتع بحياتي الخاصة لأني كنت في يوم من الأيام من المشهورين يا آنسة «جيمس»؟»

لم تعرف «هيلين» كيف ترد على كلامه.

«أنا لا أصدر أحكاماً يا سيد «لابول». ولكن كل ما هنالك أن موهبة كموهبتك من المؤسف أن تضيع ولا يتعلم منها المتسابقون الجدد».

فلوى شفتيه ومر بأصابعه في شعره الفاتح قائلاً:

«هذا يكفي.. لا أظنك ستفهمين يا آنسة «جيمس»».

رفعت «هيلين» رأسها وردت:

«إنك تقلل من شأني يا سيد «لابول»».

فابتسم ساخراً.

www.liilas.com

«لكن... ولكن ليس من حقك أن تذكرني بذلك. كنت أظن أن فتاة في السادسة عشر تهتم أكثر بالموسيقى الشعبية وأبطالها»

«أعرف ذلك أن والدي كان يذهب إلى سباق السيارات وكنت أذهب أحياناً معه»

فسألت ميلين وهي تفكر:

«إنه أمر شائك»

وأضافت كأنها:

«ماذا تعني؟»

هز دومينيك لايل كتفيه باستنكار:

«واضح ما أقول»

«ما هو الواضح؟»

نظر إليها بعينين ثابتتين صريحتين:

«اعرفك على يا آنسة جيمس. ليس من حقك أن تظني أن هذا يعني أنك لن تستطيعي ترك هذا المكان في الصباح»

٢ ـ العشاء المردود

لفترة ما كان هناك سكون تام في الغرفة. لم تستطع ميلين أن تصدق أنها سمعت جيداً ما قاله. ولكن شيئاً ما في وجهه النحيف القاسي أكد لها أنها سمعته جيداً.

قالت أخيراً:

«لا يمكن أن تكون جاداً فيما تقول»

«للأسف إني جاد يا آنسة جيمس»

«ولكن لماذا... لماذا؟»

«بالتأكيد هذا واضح أيضاً... فأنا لست مستعداً لذلك النوع من الدعاية التي ستؤدي إلى التشكيك في هذا المكان»

ورفضت ميلين أن تقبل شعور الخوف الذي بدأ يضطرب بداخلها:

«ولكن... ولكني لن أخبر أحداً»

قالت محتجة وهي تكرر الكلمات نفسها التي سمعتها كثيراً في الأفلام وفي التلفزيون، عندما كان البطل يواجه بعض الهاربين من القانون. إلا أن دومينيك لايل لم يكن هارباً من القانون. كان هارباً فقط من المجتمع.

«للأسف لا أستطيع أن أجازف... أخشى ألا يمكنك مقاومة الإغراء بأن تقولي للعالم إن الرجل الذي كان يظن أنه مات ما زال حياً وبصحة جيدة ويعيش في منطقة البحيرات»

«لن... لن أفعلها»

وضغطت ميلين على يديها:

«على أي حال لا يمكن أن تبقيني هنا. هذا غير قانوني»

فابتسم ابتسامة كريهة.

«حقاً؟»

«ولكنه جنون! أقصد أن والدي سيبحث عني»

«قلت لي بنفسك إنه لن يخطر بباله أبداً البحث عنك هنا»

«ليس في البداية، ولكن عندما لا يجدني في أي مكان آخر،

عندئذ سيفكرون مرة في العودة إليه»

وارتعشت.

«ماذا تعني؟»

«مسألة أخرى ترك هذا البلد... وحتى أصل ستبقين هنا»

وشهقت «هيلين».

«ولكن هذا قد يستغرق شهوراً»

ورد موافقاً بمرح.

«على الأقل أسابيع»

وانفتح الباب فجأة خلفها فتحركت بعصبية. كان «بريت» وهو يقف على العتبة وكتفاه العريضتان يكسوهما الثلج.

«آه «بريت» لقد عدت»

وقال «دومينيك لابورل» بحدة لم تلحظها «هيلين»:

«هل وجدت السيارة؟»

فابتسم «بريت» وقال:

«نعم يا سيدي، العالقة في الوحل. سأضع سيارتي في لحظة وآخذ الآنسة إلى فندقها»

وهز «دومينيك لابورل» رأسه موافقاً.

«نعم افعل ذلك يا «بريت». وبالمناسبة إن اسم ضيفتنا هو الآنسة «جيمس» هيلين جيمس، وستبقى معنا لمدة أطول مما توقعنا»

لا تعرف «هيلين» ما تعلمه الرجلان لكن كل ما أبداه «بريت» من انفعال

هو تقطيبة خفيفة من حاجبيه ثم ألقى بمفاتيحها إلى سيده وهو يقول:

«نعم يا سيدي»

«سآخذ هذه المفاتيح»

قال الغريب هذا وهو يلتقطها عندما ألقاها له «بريت».

«سأشرح لك الموقف فيما بعد... هل هذا حسن؟»

«نعم يا سيدي»

كان «بريت» مستمعاً لإرشاداته بطريقة مثيرة... وشعرت «هيلين» وهي تراقب الرجلين أنها ستنفجر بالبكاء. لا يمكن أن يحدث هذا لها. لا يمكن أن يكون «دومينيك لابورل» جاداً فيما يخبره من إبقائها هنا حتى يرتب أمر رحيله من البلد. إن هذا غير ممكن.

وانفجرت قائلة وهي ترتعش:

«لا أريد أن أرى غرفتي. لا تستطيعان إبقائي سجينة هنا. هذا مستحيل»

أدار «دومينيك لابورل» انتباهه إليها في قسوة وسأل بلهجة تهديد هادئة:

«وكيف تنوين أن تمنعيني؟»

«أنا... سأهرب»

«مرة أخرى؟»

«سأذهب إلى أقرب مزرعة أو قرية. سأتصل تليفونياً وأطلب النجدة»

«لا توجد تليفونات هنا يا آنسة «جيمس»»

«سأقصد إلى القرية»

سألها «دومينيك لابورل» بخبث:

«وهل تعرفين الطريق إلى القرية؟»

«لا أظن أنه يصعب العثور عليه»

«في هذه الظروف؟»

وامتلأ حلقها بالبكاء.

«بالله عليك... أرجوك لا أريد أن أبقى هنا. أريد فقط أن أذهب إلى «باريس» وأعدك أني لن أخبر أحداً عنك. فقط دعني أذهب»

«أخشى أن يكون ذلك مستحيلاً يا آنسة جيمس»

ألقى معطفها إلى بولت قائلاً:

«يجب أن تنقل السيارة غداً قبل أن يذوب الثلج»

«سأتولى ذلك في الصباح»

شعرت غيلين بحالة من اليأس القاطع. ويبدو أنه لا حل لهذا الموقف الغريب. لقد وضعت نفسها في هذا المأزق يا للغباء. لو لم تغير من عزمها من واقعها ولو لم تتعرف عليه ولو... ولو...

«لا تستطيع أن تتخلص من عاقبة الغريب»

رد دومينيك لابول وهو يحرك عضلات فمه:

«لا أنصحك بذلك»

كان يبدو مرهقاً بشكل واضح وبدت غيلين وهي ترى أن الوقوف لمدة طويلة سبب إرهاقه. كان من المفروض أن تشعر بالسرور لأنه ليس قوياً إلى الحد الذي يرغمها أن تستضيفه. ولكن هذا لم يكن شعورها. كان يتحرك في داخلها شعور خاص بالعطف. وتساءلت عن السبب الذي جعله يلفظ العالم الذي كان يعيش فيه بهذه العزلة الرائعة.

وشعر بولت أيضاً بتعب سيده وبحجم الكلفة التي وأدتها سنوات خدمته معه. قال له بلوم ورفق:

«إنه موعد علاجك يا سيدي - إذا ذهبت إلى الدور الأرضي سأعتني بك على الفور بعد أن أصحب الآنسة جيمس إلى غرفتها»

كان تعبير دومينيك لابول وهو ينظر إلى غيلين ينم عن السخرية من نفسه. وسألها بمرارة:

«هل ترين كيف يعاملونني؟ إني مثل أداة غريبة تحتاج التربيت دائماً - أليس كذلك يا بولت؟»

احمرت شفتا غيلين ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول:

«إنك لست مسناً»

«على الأقل ببضعة سنوات أكبر مما كنت عندما سمعت اسمي لأول مرة»

قال ذلك بقسوة بينما تقلص وجهه من الألم.

«أرجو أن تعذريني»

وخرج وهو يعرج بتثاقل وقد التوى فكه في شبه تشنج. وراقبه بولت وعلى وجهه تعبير الإخلاص والحب الكبير كما فعلت غيلين. ثم رأيا دخيلة وقامت أيضاً الفهدة وسارت خلف سيدها.

ثم استدار بولت نحوها وقال وهو يفك أزرار معطفه ويخلعه:

«لحظة واحدة يا آنسة... هلا أتيت معي؟»

كانت غيلين تريد أن تحتج - المفروض أن تحتج. يجب أن تذكر أن هذا جنون وأنه ليس من حقهم أن يحجزوها رغم إرادتها وأنها ستجد طريقة للهروب. ولكنها بدلاً من ذلك راقبت بولت وهو يحمل حقائبها ثم تبعته صاعدة السلم الخشبي الواسع وقدماها تغوصان في السجادة ذات اللون البني والذهبي التي تغطيه.

كان مطلع السلم كالصالة له نوافذ زجاجية. وفي منتصف الطريق إلى أعلى نافذة مستديرة تطل على خلفية المنزل. وكان من غير الممكن رؤية أي شيء من خلال الجليد المتساقط لكن لمعان الفروع أعطى المكان إحساساً خاصاً.

وفي أعلى السلم ممر يؤدي إلى الجانبين وسياج السلم يطل على غرفة الجلوس الواسعة.

وأخذت غيلين تتأمل الغرفة الكبيرة بشكلها الرائع.

وسار بولت في الممر إلى يمين السلم ماراً بعدة أبواب قبل أن يقف أمام باب الغرفة التي ستكون غرفتها. فتح الباب وأضاء الأنوار. فتبعته غيلين إلى داخل الغرفة.

وكانت الأرض مغطاة بسجادة ناعمة بلون الزيتون تتناسب مع لون غطاء السرير الزيتوني والسكري. وكذلك لون الستائر المخملية الحريرية التي تغطي النوافذ. وكان الأثاث المكون من سرير وثلاثة مرايا وخزائن كبيرة من خشب الماهوغني الغالي أضخم قليلاً مما يجب لكنه مقبول في هذه الغرفة ذات السقف العالي. وهناك مدفأة تحت النافذة والغرفة دافئة بشكل مريح.

ووضع بيرت حقائبها على الأرض وأشار إلى باب قرب النافذة في الطرف الثاني للغرفة قائلاً:

هنا الحمام.

ثم نظر حوله ليتأكد أن كل شيء على ما يرام.

ووضعت زجاجات ماء ساخن في السرير ويمكن إضافة مثلها مرة أخرى إذا احتجت لذلك.

قالت جيليان وهي تعض شفتيها متعجبة كيف انقلبت المواقف بينهما:

أشكرك يا بيرت.

ثم أضافت وهي تتجه إلى الباب:

هل فكرت...

نظر إليها بأدب رغم استعجاله الذهاب لسيده:

نعم يا آنسة.

هل تسمح... أن تغلق الباب خلفك.

ابتسم وخرج وأغلق الباب وسمعت قعقعة المفاتيح من الداخل. بعد خروج الخادم ذهبت جيليان نحو النافذة وأزاحت الستائر جانباً لكنها لم تستطع أن ترى إلا بضع أشجار مغطاة بالثلج. تركت الستائر تعود إلى مكانها واستدارت لتتفقد غرفتها.

وفكرت بشيء من عدم الارتياح: إن أية غرفة في فندق لا يمكن أن تكون أكثر راحة وأي صاحب فندق لا يمكن أن يكون أكثر اهتماماً براحة ضيفه من بيرت بالغرفة! كلما فكرت في الأمر كلما بدا خيالياً. فكم من المتوقع أن تبقى هنا وكم من الوقت سيستغرق مونسيو لابوك ليسوّي أموره كما يريد ويتركها لتذهب!

أخذت تذرع الغرفة بقلق محاولة تهدئة أفكارها التي راودتها عندما وجدت نفسها وحيدة. هل يعني حقاً ما قاله؟ أم أنها خدعة مصطنعة ليخيفها ويتسلى بها؟ ورجحت الاحتمال الأخير ومع ذلك فهو شخص مثقف ومهذب! كيف يمكن أن يقرر بشكل عفوي أن يحتجزها على غير إرادتها ولا يتركها إلا في الوقت الذي يناسبه هو؟ ما هي طريقة الحياة التي كان يعيشها هذه السنوات الأخيرة والتي

جعلت قسوته بادية!

نظرت إلى ساعتها التي تجاوزت السادسة. لقد قال مونسيو لابوك إنه يتناول عشاءه في الثامنة ولكنها الآن تشك في دعوتها على الطعام. وأين هو وما هو نوع العلاج الذي يعطيه له بيرت!

نظرت إلى نفسها في المرآة فلم يعجبها منظرها المشوش. كانت ملامحها مرهقة بسبب ظنونها وشعرها غير متسق بفعل الهواء وفي عينيها شرود أحدثه انزلاقها المفاجئ الشاق على جانب الطريق.

ورفعت يدها إلى رأسها وأبعدت خصلة من شعرها الأسود الناعم. ماذا ستفعل الآن؟

تفحصت الحمام فتأكدت من عدم وجود أي مخرج سوى باب غرفة النوم. أغلقت باب الغرفة بالمفتاح ودخلت المستحم. كان الحمام فسيحاً والمياه الساخنة وفيرة وشعرت بالراحة والانتعاش. وخرجت من الحمام وقد لفت جسمها بمنشفة بيضاء كبيرة وبحثت لتحضر بعض الملابس النظيفة، لكن لسوء حظها كانت حقيبتها مغلقة ومفاتيحها في الحقيبة التي أخذها مونسيو لابوك.

وقفت متحيرة وسط الغرفة لا تدري ماذا تفعل. كانت تريد أن تقرع الجرس وتنادي بيرت ليحضر المفاتيح ولكن نوع مزاجها جعلها تعيد النظر في هذه الفكرة. وبقليل ارتدت ملابسها التي خلعتها للتو وأمسكت بمشط لتمشط شعرها وبمكياج خفيف. لحسن الحظ أن أدوات المكياج كانت في حقيبة يدها التي لم تمس غير مرتبة. كما أن ملابسها لا بأس بها وفي أي حال فهي تشك إن كان مونسيو لابوك سيلاحظ أي شيء. وحسبت أن الحصول على مفاتيحها قبل النوم فهي لا تريد أن تنام بدون قميص نومها.

شعرت بشيء من القلق لهذه الفكرة. ولكن ليس هناك خوف من أن يضايقها أحد خلال الليل. بابها يغلق بإحكام، وهي متأكدة فعلاً أن منزل خلفه. كما أن بيرت لا يبدو من ذلك النوع الذي يفرض نفسه على أحد. ومونسيو لابوك... إنها لا تريد أن تفكر في مونسيو لابوك. ولكن من المستحيل ألا تفكر فيه. لا تريد أن تتذكر الإرتباك الذي انتابها عندما لمسها من قبل أو السحر

الشديد الذي شعرت به نحوه. قالت لنفسها إنه غير وارد أبداً لكرهه والخوف. ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يجذبها غير كسيح. كما أنه لا تسمح له ولا يسمح لنفسه أن يفسد خططها لمصلحته الخاصة.

ومع ذلك فهي تذكر كل التفاصيل الخاصة به: شعره الفاتح اللون وعينيه الصفراوين وخطه الغامض وجسمه القوي النحيل وعضلات فخذه التي كانت تنم تحت سرواله الضيق وحذاءه الطويل حتى ركبتيه والكرب الذي بدا فيه عندما شعر بالألم. أمسكت أنفاسها ليس من المعقول أن تشعر بالعطف عليه ولكنها فعلت!

هزت رأسها وانتفض شعرها الأسود حول وجهها وفتحت الباب وخرجت. وكان المطر سحباً رمادية. أضاءت نور غرفة النوم وسارت بتصميم نحو السلم على رأس السلم.

ونزلت إلى الصالة ونظرت حولها في حيرة: أي باب يؤدي إلى غرفة الجلوس؟ إنها لا تتذكر. اقتربت من أحد الأبواب وفتحته فوجدته يؤدي إلى غرفة ملابس فأغلقته بسرعة واتجهت إلى باب آخر وهي تشعر كأنها ماري في بلاد العجائب. كانت هذه غرفة طعام صغيرة فيها مقعد مستدير يغطيها مفرش أبيض. هل هذه هي الغرفة التي ستتناول فيها طعام العشاء؟ وتنهدت ثم استدارت على صوت صوت خلفها. كان أحد الأبواب في الصالة قد فتح وظهر دومينيك لايول من خلاله وأغلقه ثانية وراءه.

- هلا انضممت إلي؟

ومعاً بصوته العميق الجذاب الذي بدأت تتعود عليه في هذه الفترة القصيرة. هزت كتفيها بعجز وأطاعته. اتبعته في هذا الطريق القصير إلى غرفة الجلوس ثم أغلق الباب خلفها. كان قد غيّر ملابسه السوداء إلى قميص حريري بشمسي اللون وسروال بيج فاتح وصدرية بلون أغمق قليلاً من السروال. وكان وجهه لا يظهر عليه التعب الذي بدا عليه من قبل. وفكرت جيلين أن بولت لابد قد قام بعمله فهو جسم مصارع ولكنه يمكن أن يكون عرف انفعاله.

واتجهت ناحية المدفأة وهي تراقب بخوف الهيئة التي تبعتها. وكانت المدفأة

قد ملئت بالأخشاب في غيابها والمقعدان اللذان جلسا عليهما الثاني من قبل غطيت بغطاء جميل.

أشار دومينيك إلى الكرسي الذي جلست عليه من قبل قائلاً:

- تفضلي بالجلوس.. هل أقدم لك مشروباً قبل العشاء؟

كان يعاملها كأنها ضيفة منتظرة فشعرت بالإحباط. هل كان يتوقع أن تتصرف على هذا الأساس؟ هل سيتركه ينفذ خططه بدون مقاومة؟ كيف يجرؤ أن يتصور أنه ليس لها أي رأي في الموضوع؟ قالت أول كلام خطر لها:

- في الواقع أنا لم أنزل لأتعشى معك! أريد مفاتيحي؛ مفاتيح سيارتي! ليس من حقك الاحتفاظ بها لم أستطع حتى تغيير ملابسي بعد الغداء.

عبس دومينيك وهو يدفع يده في جيب سرواله ويخرج حلقة مفاتيحها ويفحص المفاتيح باهتمام ثم قال:

- آسف طبعاً تريدين مفاتيح حقائبك. أزعم أنني نسيتها لي..

حدقت فيه جيلين بغضب للحظة ثم بدون أن تفكر في النتائج انتفضت محاولة خطف المفاتيح من يده. لم تكن تعرف بالضبط ماذا يمكن أن تفعل بها لو نجحت في أخذها الفكرة الغريبة في الركض إلى سيارتها ومحاولة إدارتها مع عدم إمكانية ذلك، والهروب بها كانت فكرة غير عملية على الإطلاق، ولكن كان يجب عليها أن تفعل شيئاً، أي شيء، لتثبت له أنها ليست عاجزة كما يتصور.

فشلت محاولتها فقد أطبقت أصابعه على حلقة المفاتيح وباءت محاولاتها لانتزاعها بالفشل. إذا كانت قد تصورت أنه ضعيف أو أن إصابته أدت إلى عجزه عن رد الهجوم فقد اكتشفت على الفور من أن اعتقادها خاطئ، وعندما هاجمته كانت تتوقع أن يفقد توازنه. لكن هذا لم يحدث وكان جسمه القوي يقاوم بشدة. كما أنها لم تنتبه على الإطلاق للهيئة التي كانت تراقبهما بعيون متحفزة ذكيتين والتي امتنعت عن التدخل بأمر من سيدها. وبينما هي منهمكة في محاولة انتزاع مفاتيحها من يده لم تستطع إلا أن تشعر بوجود دومينيك لايول. كانت تشعر بحرارة جسمه وبالعطر الذي يفوح منه. ولكن عندما نظرت إليه ورأت الابتسامة الساخرة القاسية على وجهه انسحبت بعيداً بسرعة خائفة.

«أنت.. أنت متوحش! إنها مفاتيحي وأنا أريدها»

سألها وقد ارتفع حاجباه:

«ألا تظنين أنك تتصرفين بغباء؟ عرضت أن أعطيك المفاتيح التي تريدينها»

وحركت رأسها يمنة ويسرة بشعور العجز وقالت بصوت مهزوم:

«لماذا تفعل ذلك؟ لماذا لا تتركني أذهب؟»

سألها بسخرية:

«بالليل؟»

«لا غداً.. أرجوك»

قال بازدراء:

«لا تستعطفيني.. أنا أحتقر الضعف»

شعرت هيلين كأنه صفعها. ضغطت يدها على حلقها واستدارت بعيداً عنه وهي تستند على ظهر الأريكة تستعيد رباطة جأشها. وكانت تشعر بعينيها تلذعانها لشدة رغبتها في البكاء. شعرت بالضياع والوحدة وعدم القدرة على التفكير الآن وحتى النظرة الشريرة التي كان طيفها توجهها إليها لأنها قرأت رفضت سيدها لم تستطع أن تثيرها.

سمعت الشرير خلفها.

دفع دومينيك لايول كوباً في يدها.

نظرت إلى الكوب بلا تعبير وسألت:

«ما هذا؟»

«ماء..... سيساعدك على أن تستعيدي تفكيرك السليم»

واجتاحتها الرغبة في إلقاء الكوب بما فيه على الأرض لكنها كانت عطشة لدرجة، رفعت الكوب إلى شفتيها المرتجفتين وشربت منه قليلاً ثم شربت الباقي دفعة واحدة. لسعها الشراب في حلقها فسعلت وصعدت الدموع إلى عينيها ولكنها شعرت بالدفء يسري بداخلها.

ودار دومينيك لايول حول الأريكة وبدون أن ينظر إليها جلس في الكرسي قرب النار المتقدة ثم سكب لنفسه كأساً من زجاجة على الصينية بجانب كرسيه.

أخذ سيكاراً رفيعاً من صندوق على رف الكتب بجواره، وأشعله باستمتاع واضح من القداحة بواسطة شمعة رفيعة، ووقفت هيلين تراقبه من وراء الأريكة وتتعجب لعدم اهتمامه الشديد رغم علمه بلا شك بحالتها.

وبعد أن أشعل سيكاره كما يريد وضعه بين أسنانه وأخرج مفاتيحها من جيبه وفحصها جيداً ثم استخرج اثنين منها وألقى إليها بالباقي. ولم تكن سريعة بما يكفي لالتقاطها فسقطت المفاتيح على الأرض أمامها. انحنت لتلتقطها وهي تشعر بالمهانة ولاحظت أنه أخذ مفاتيح السيارة وقال وهو يمد ساقيه الطويلتين أمامه:

«والآن.. أين الحقيبة؟»

«لا.. سأذهب إلى غرفتي، وآمل أن تكون في الصباح قد عدت إلى رشدك»

رد بابتسامته الساخرة التي أصبحت تتوقعها وهو ينزع سيكاره من فمه:

«لا تشعري بخيبة الأمل إذا لم أفعل»

«أنت.. متوحش»

«رأيك فيّ لا أهمية له»

وراقبها وهي تسير نحو الباب ثم قال:

«ألم تنسي أن الحرب تعتمد على بطون المحاربين؟ وإذا لم تتناولي عشاءك فستكونين في الصباح جائعة جداً»

وأحست هيلين بمثل الألم لما يختص بالطعام. تستطيع أن تقهر نفسها.

«لا أستطيع أن آكل طعامك»

قالت ولهجتها تزيد من تصميمها:

«لو أكلته سأمرض»

وقبل أن تخرج بعد هذه الكلمات انفتح الباب ودخل بوث يحمل صينية. لم تستطع أن ترى كل ما عليها.. لكن رائحة صلصة الكاري كانت واضحة ولاحظت إبريقاً من القهوة مع قطع الفاكهة المرتبة على جانب الصينية.

ونظر القادم إلى هيلين باندهاش ثم قال:

«فكرت في أن أقدم لكما العشاء هنا يا سيدي فالليلة باردة جداً»

قال دومينيك وهو يبتسم بسرور أكثر من العادة

إنها فكرة حسنة. هلا أكلت معي يا بولت.

وألقى بولت نظرة على هيلين وهي ما زالت تقوم بجانب الباب وقد عذبتها رائحة الطعام. بدأت الآن فقط تشعر بالجوع الشديد وأسفت لتصرفها المتسرع في رفض الطعام. وقال بولت:

ولكنني ظننت أن الآنسة...

وهز دومينيك رأسه قائلاً:

الآنسة جيسي ليست جائعة يا بولت. قالت إن الطعام سيرهقها.

ونظر إلى وجه هيلين الشاحب بعينيه القاسيتين فحركها ألم.

نعم... هذا صحيح... أنا أهتم باختيار الشخص الذي أتناول الطعام معه.

ثم خرجت وصفقت الباب وراءها.

ووقفت لحظة في البهو متوقعة أن يعنفها أحد على تصرفها لكن كل ما سمعته هو انفجار في الضحك من دومينيك لا يرد. وتحققت من أن بولت هو الذي سيستعمل الكوب الآخر على الصينية.

٣ ـ النوبة

كان سرير هيلين مريحاً جداً، وذكرتها زجاجات المياه الساخنة بطفولتها عندما كانت والدتها تضعها في السرير وتحكي لها قصة قبل النوم.

لم تكن تتوقع أن تنام. لكن التعب عمل مفعوله، وعندما استيقظت كانت الغرفة مليئة بضوء الشمس وانعكاس الثلج. ولحظات لم تستطع أن تتذكر أين هي. ولكن على الفور عادت كل الذكريات تتزاحم عليها ورغم ذلك لم تكن تعرف بالضبط أين هي عدا أنها في منزل في منطقة البحيرات وتذكرت مضيفها وكل أحداث الليلة الماضية الغريبة.

ونظرت إلى ساعتها التاسعة والنصف تقريباً. طرفت عينيها باستغراب. فقد نامت أكثر من اثنتي عشرة ساعة. ودفعت الأغطية جانباً ونهضت من سريرها وسارت نحو النافذة. فالآن وفي ضوء النهار يمكنها أن ترى المكان وقد ترى منازل أخرى.

لكن المنظر أمامها كان مخيباً للآمال. فكل ما استطاعت أن تراه هو حديقة خلفية مغطاة بالثلج ووراءها حقول يغطيها أيضاً. أما تحت نافذتها مباشرة فكان هناك ممر قد تم تنظيفه ولا شك أنه بولت وكانت هناك آثار أقدام تدل على أن شخصاً ما قد خرج. أغلقت الستار ونظرت إلى الغرفة حولها. لم تكن أقل جمالاً في ضوء النهار رغم أن الملابس الخارجة من حقائبها كانت تبدو غير منظمة. كانت متضايقة في الليلة الفائتة ولم تستطع أن تفعل شيئاً إلا أن تجد قميص نومها وتدخل في الفراش. ورتبت الأغراض في حقائبها وقصدت الحمام لتأخذ دوشاً. ولكنها لم تجد دوشاً في الحمام فاغتسلت وعادت إلى الغرفة لترتدي

ملابسها. وبينما كانت تلبس سروالاً رياضياً نظيفاً سمعت طرقة خفيفة على الباب. وخفق قلبها بشدة ووقفت ساكنة لحظة تتساءل من الطارق.

ثم سمعت صوت «بولت» المألوف:

- آنسة «ميس»! آنسة «ميس»، هل استيقظت؟

- نعم... ماذا تريد؟

- أحضرت لك إفطاراً يا آنسة. تذكرت أنك قد تكونين جائعة.

ترددت «ميلون» فخطر لها أن تأمره بالذهاب وأن تخبر سيده أنها مضربة عن الطعام حتى يتركها تذهب ولكنها تذكرت أن هذه الطريقة لن تجدي مع رجل مثل «دومينيك لاسيل». إنه يستطيع أن يتركها حتى تسقط من الإعياء قبل أن يفكر في الاهتمام بها. وحتى في هذه الحالة فهي تشك أنه سيستسلم لطلباتها.

فصاحت وهي تسحب بسرعة بلوفر أخضر وتدخله في رأسها:

- لحظة واحدة.

وفتحت الباب وهي تخرج شعرها من فتحة البلوفر. كان «بولت» أمام الباب بجسمه الضخم الذي أصبح معروفاً لها وأكمام قميصه مطوية فوق ذراعيه وقد ظهرت عضلاته البارزة من تحتها. لم يكن يشبه مديراً لمنزل ومع ذلك فالصينية التي أحضرها ووضعها على الطاولة قرب سريرها كانت منسقة أحسن تنسيق.

وقال بابتسامة ساخرة:

- كورنفلكس وبيض وشرائح الخبز والمربى والقهوة. هل هذا يعجبك؟

نظرت إلى الصينية ثم إلى «بولت» وابتسمت قليلاً ثم قالت بصراحة:

- عظيم. إنني أموت من الجوع.

قال «بولت» بلهجة جافة:

- السيد «لاسيل» كان يظن ذلك.

أطبقت شفتا «ميلون».

- أوه... هو يظن ذلك!

وابتسم «بولت» ثم قال:

- الآن هل ستطلبين مني أن آخذ كل شيء ثانية؟

ترددت «ميلون» ثم قالت بمرارة:

- طبعاً لا...

- هل ستقطعين أنفك لتغيظي وجهك؟ السيد «لاسيل» لن يهمه إذا جوعت نفسك.

وهزت كتفيها قائلة:

- أعلم ذلك.

- إذن لا تكوني عنيدة. تناولي إفطارك وسأحضر لآخذ الصينية فيما بعد.

نظرت «ميلون» إلى الخادم الضخم بشك:

- قل متى يريد...

ورفضت أن تنطق اسم السيد «لاسيل».

- قل متى ينوي إطلاق سراحي.

سار «بولت» نحو الباب وقال ناصحاً وهو يخرج:

- تناولي إفطارك يا آنسة.

بعد أن أغلق الباب نظرت «ميلون» بعجز نحو الرواق. فقد افترضت أن «بولت» يتعاطف معها؟ كان يجب أن تعرف أنه لا فائدة من كسب ثقته.

وفي أي حال فإن رائحة الطعام في هذه اللحظة كانت أقوى من أن تقاوم. رفعت الأغطية واندفعت تأكل بنهم. كان إفطارها المعتاد الخبز المحمص والقهوة لكنها اليوم أكلت كل ما أحضره «بولت» وكانت القهوة جيدة فشعرت بالشبع الطيب. بعد أن انتهت من طعامها قامت ومشت مرة أخرى إلى النافذة. ما المفروض أن تفعل الآن؟ قال «بولت» إنه سيحضر ليأخذ الصينية فهل هذا يعني أنها يجب أن تبقى في غرفتها؟ كان كل كيانها يثور على هذه الفكرة. وراء كل الجوانب السيئة في وضعها فإن الصباح كان جميلاً، وكانت تتمنى أن تخرج في الهواء الطلق... تذكرت في الفندق الصغير في «باريس» الذي كانت تنوي الذهاب إليه. كانت تنوي أن تقضي أيامها في التنزه وقيادة السيارة والتمتع بالمنظر غير العادي من سطحها والمعالم التاريخية. لكنها الآن تبدو في وضع أسوأ ولربما أشد كثيراً مما يمكن أن يتصور واحد.

وجعلها تفكيرها في والدها تتساءل إذا كان قد استلم الكلمة التي كتبتها له. لقد وضعتها في صندوق البريد في «لندن» اليوم السابق وهي في طريقها إلى الشمال. لم تكن تريد أي أشخاص يبحثون عنها ويجدونها. أما الآن فهي تتمنى لو لم تكن قد أخفت آثارها بكل هذه الدقة.

لن يقوم أحد بالبحث عنها هنا. وحتى لو فكروا فكيف سيجدونها؟ إذا كان «دومينيك» لا يزال. لقد عاش هنا في عزلة السنوات الثلاثة فإن أحداً لن يفكر في البحث عنه الآن. وفي الواقع إنها تشك أن أحداً يعلم بوجوده أصلاً.

وقطبت جبينها لكن لابد أن أحداً يعلم بوجوده. لابد أن هناك من يمده بالطعام. وبعيداً عن البريد ارتفعت روحها المعنوية قليلاً. إذا كانوا سيأتون هنا فلابد أنهم سيحضرون ثانية أكثر وسيلاحظ من يقوم بهذه المهمة ذلك.

تنهدت. ولكن «بول» يستطيع أن يقول إن لديهم ضيفاً ولن يشك أحد في كلامه. إن فرصتها الوحيدة في هذا الاتجاه تبدو في حضور أحد إلى المنزل. ساعي البريد على سبيل المثال.

وأخذت تفكر في طرق تلفت النظر إليها راغبة أن تجد الأمل. كانت ذكية بما فيه الكفاية لتعرف أن «دومينيك» لن يسمح لأحد أن يراها لذلك كان يجب عليها أن تبحث عن المساعدة بطريق آخر. يمكنها مثلاً أن تكتب ورقة وتلقيها من النافذة العلوية. لا... ستختفي تحت الثلج أو سيلتقطها الولد. وقد تكون هذه فكرة جيدة... لكن شعوراً باليأس ملأ نفسها فأي عنوان يمكن أن تكتب؟ إنها لا تعرف أين هي ولا أين يوجد هذا المنزل! تفكيرها لا يسفر عن نتيجة. إنها لا تستطيع حتى أن تتذكر اسم القرية التي سألت فيها عن اتجاهها اليوم السابق.

عاودها الأمل مرة أخرى. نعم الناس في تلك القرية، مدير مكتب البريد قد يتذكر سيدة صغيرة غريبة تسأل عن الطريق. بالتأكيد لا يأتي غرباء كثيرون إلى هذه المنطقة في هذا الوقت من السنة. نعم إنها متأكدة أنه لو سئل سيتذكر وسيخبر عن الاتجاه الذي ذهبت فيه.

وتقلصت معدتها في جسمها. إنها تبحث عن قبس أمل في موقف يائس. ولكنها لا تفزع أبداً. كل شيء متوقف على بحث والدها عنها وقد يمر أن ينتظر لدى إلى

متى ستغيب عن المنزل. ولكن إذا بحث عنها واستنفد الأماكن التي قد يتصور أن يجدها فيها ثم فجأة تذكر الأجازة التي قضياها في منطقة البحيرات واتجه شمالاً ووجد القرية التي سألت فيها.

وسمعت طرقة على الباب مرة ثانية.

«ادخل».

فتح «بول» الباب وأطل برأسه.

«هل انتهيت؟»

هزت «هيلين» رأسها وأشارت للصينية.

«نعم أشكرك. كان الطعام لذيذاً. وقد أكلته بهدوء».

وابتسم «بول».

«هذا حسن. كل شيء يبدو أكثر إشراقاً عندما تكون المعدة ممتلئة».

«هل تظن ذلك؟»

وفتح «بول» الباب ودخل.

«بلا شك. هل ستنزلين إلى الطابق الأرضي؟»

«هل ستسمح لي بذلك؟»

«يمكنك أن تفعلي ما تريدين يا آنسة».

«هل هذا صحيح؟ أين... أين التليفون؟»

ورفع «بول» الصينية.

«إنه في المكتبة يا آنسة. وستجدين عدم إفادته».

ونظرت إليه بأمل.

«هل تصورت أنني قد أتلفته؟»

وهز «بول» كتفيه ثم نظر إلى ملابسها غير المنظمة ثم قال:

«سأتولى أمر الأطباق فيما بعد عندما أرتب السرير».

«لا... لا... لا تتعب نفسك».

«إن ذلك لا يتعبني يا آنسة».

«أستطيع أنا أن أرتبه».

لم يرد «بريت» على ذلك وسار نحو الباب.

ـ إنه يوم جميل.. ألا تحبين الخروج؟

وحملقت فيه «هيلين»

ـ إلى الخارج؟ ماذا يقول الرجل في ذلك. قد أهرب..

كان تعبير «بريت» ساخراً

ـ لا أنصحك بالمحاولة يا آنسة. إن شيبا مدربة على مطاردة الغزلان ولا أحب أن أراك فريسة لها.

صمتت «هيلين» رغماً عنها

ـ إذاً من حسن الحظ أنك لم تكن معنا بالأمس.

قالت وهي تشعر عند تذكرها لحوادث الأمس المخيف.

ـ نعم لقد سمعت يا آنسة.

قالها «بريت» وهو ينصرف بإمالة خفيفة لرأسه.

ونظرت «هيلين» حول الغرفة ثم تبعته على السلالم العريضة إلى ضوء الشمس في الطابق السفلي. وقاد «بريت» من باب مغطى بالجلد الأخضر خلف السلالم فدخلت بدون تفكير وراءه.

ووجدت نفسها في مطبخ فسيح الأرض المغطاة بالبلاط المتسع من كثرة تنظيفها ورغم أن المطبخ كان قد تم تجديده بأنواع صلب وبحوض من الصلب إلا أن الفرن الضخم الذي كان أداة الطبخ الوحيدة فيما مضى بقي كما هو. كذلك المدفأة من الرصاص الأسود والنار تؤز فيها وكان هناك باب مفتوح يؤدي إلى الخارج.

ووضع «بريت» الصينية على لوح التصفية وبدأ يضع الأطباق المستعملة في الحوض. ونظر إلى «هيلين» وهو يبتسم قائلاً:

ـ لا بد أنك تظنين أن هذا العمل غير معتاد بالنسبة إلى الرجل. أليس كذلك؟

هزت «هيلين» كتفيها بلا اهتمام وابتعدت نحو المنضدة الخشبية الطويلة التي تتوسط المطبخ ثم قالت بصراحة:

ـ لا أظن أنه عمل غريب بالنسبة إلى رجل هذه الأيام ولكني أعترف أنك لا تبدو

الشخص المناسب لهذا العمل.

وضحك «بريت» قائلاً:

ـ لا.. لا أظن أني كذلك.

ونظرت إليه «هيلين»

ـ ولكن هذا لم يكن عملاً دائماً.. أقصد أن هذا ليس عملك الوحيد. أليس كذلك؟

ـ إنه الآن.

وقال «بريت» وهو يغمس يديه في صابون الحوض:

ـ ولكن أظن يمكنك أن تعتبريني صاحب سبع مهن. ففي البداية كنت في الجيش والتحقت به وأنا مازلت صبياً. ثم عندما تركت الخدمة عملت مضارعاً للفترة. ولكن هذا العمل كان مملاً ولم يعجبني. ثم أصبحت ميكانيكي سيارات.

ثم توقف لحظة واستطرد:

ـ والآن أنا مدير منزل.

ونظرت «هيلين» إليه

ـ إنه غير المتوقع لرجل. أليس كذلك؟

قال بهدوء وتأكيد:

ـ إنه رجل عظيم.

قالت «هيلين»:

ـ نعم.. ولكن اعذرني إذا احتفظت بحكمي الخاص.. وهل تعرفه من مدة طويلة؟

ـ منذ حوالي عشرين سنة.

ـ ولكنك لم تعمل لديه كل هذه المدة.

ـ بالطبع أو من أجله هذا لا يهم. كان والده من الضباط الذين أعمل تحت إمرته في الجيش.

ـ آه.. فهمت.

وتابعت «هيلين» نحو الحوض. كانت النافذة العريضة تطل على فناء خلف المنزل وعلى جانبيه بعض السقائف والمباني البسيطة.

www.liilas.com

وقالت وهي تحاول أن تجعل سؤالها يبدو عادياً:

«أخبرني.. كيف تحضرون لون الأشياء الطازجة مثل اللبن والبيض، وهكذا من الرسائل؟»

«بالنسبة إلى الرسائل فإننا نحضرها من مكتب بريد خاص بنا».

هكذا أجاب «بولت» بهدوء، فهو يعرف كل أسئلتها في هذا الاتجاه.

«ولدينا بقرتان وبعض الدجاج.. وفي الصيف نزرع خضرنا وفاكهتنا ونحفظها لنستعملها فيما بعد. لدينا الكفاية ذاتياً، وحتى خبزنا فأنا أقوم بخبزه. لكن لماذا تسألين؟»

«الآنسة «جيمس» تبحث عن طرق لتتغلب بها علينا يا «بولت»».

هكذا نطق صوت متكاسل ساخر من خلفها، واستدارت «إيلين» فوجدت «دومينيك لايول» يستند بلا مبالاة على الباب. كان قد عاد إلى ملابسه السوداء، ورغم لون شعره الفاتح كان مظهره شيطانياً لدرجة مقلقة، وأحنى رأسه بأدب نحو «إيلين» واستطرد قائلاً:

«صباح الخير يا آنسة «جيمس». أظن أنك قد جئت أخبرني «بولت» أنك كنت مستعدة لتناول إفطارك. هل استمتعت به؟»

كانت «إيلين» تتمنى لو استطاعت أن تقول له إنها لم تذق طعامه ولكن هذا كان مستحيلاً بالطبع، وبدلاً من ذلك حاولت أن تتخذ موقفاً متحدياً:

«هذا يعني أن والدي سيشعر بالغضب عندما يكتشف بعد حين أنك استبقيتني هنا رغماً عني».

ابتسم «دومينيك» وقال:

«أتصور أن هذا سيقلق صاحب الفندق».

صرخت «إيلين» بدهشة واستنكار:

«أي.. أية فندق تقصد؟»

«طالما يظن صاحب الفندق أنا لن أكون موجوداً هنا بل أنت».

ابتسمت «إيلين» قائلة:

«هل تظن أنه سيترك الموضوع هكذا ببساطة؟ إنه سيجدك أينما كنت».

قال «دومينيك» بسخرية:

«حقاً؟ أشعر بعجز إذا كنت أنت تعتقدين أن والدك في مجال البحث والتحري. إذا كان وسط الصحافة بأكمله لم يستطع اكتشاف مكاني منذ عدة سنوات فلا يمكن أن أشعر بقلق كبير بخصوص جهود والدك».

«يستطيع أن يعطي القصة للصحافة، ويستطيع أن يستأجر أي عدد من المخبرين».

«هل يستطيع ذلك؟»

وقال مفكراً:

«هذا جدير بالاهتمام وخاصة أنه يصدر من إنسانة كانت بالأمس فقط تحاول أن تؤكد لي أنني إذا تركتها تذهب فلن تخبر أحداً بمكاني».

اندفع الدم في وجنتيها وردت قائلة:

«كنت أعني ما أقول».

«حقاً، ولكنك الآن غيرت رأيك».

«نعم.. لا.. أقصد..»

وبحثت عن الكلمات:

«أحاول فقط أن أؤكد لك أنه إذا وقفت في طريق والدي فستدفع الثمن».

«تهديدات يا آنسة «جيمس»».

وهزت «إيلين» رأسها بعجز:

«لا تربكني في الكلام. إذا تركتني أذهب سأنسى أنك هنا.. أما إذا لم تفعل.. فأنا لست مسؤولة عن النتائج».

ولوى «دومينيك» شفتيه:

«نعم.. هذا طريف جداً بالتأكيد».

ثم نظر إلى «بولت» قائلاً:

«هل تظن أننا نستطيع أن نشرب القهوة؟ أود أن أستريح قليلاً».

ووافق «بولت» قائلاً:

«بالطبع».

وجرت «هيلين» تمسحها وهي تشعر كطفلة متعبة.

نظر «فرنسيس» إلى وجهها العابس وانفرج بحنو:

«هل تشربين القهوة معي؟»

حدقت فيه وردت بوقاحة:

«لست عطشى».

«ولا الشاي».

هز «فرنسيس» كتفيه وخرج وترك الباب مغلقاً وراءه. وعندما خرج تمنت «هيلين» لو لم تكن قد تصرفت بهذا التعجل. فرصتها الوحيدة في الهرب تكمن في محاولة إقناعه بتغيير رأيه، وطالما أنها تتصرف كتلميذة صغيرة مدللة فلن تتمكن من الوصول إلى هدفها.

وجلست بخمول على طرف أحد الكراسي الخشبية أمام المنضدة النظيفة وأخذت تراقب «بول» وهو يعد القهوة ويضع فنجاناً وطبقاً وسكراً على صينية من الفضة.

واتجهت نظرة «بول» إليها مرة، ثم كأنه شعر بالشفقة عليها قال:

«هل تريدين القهوة؟»

نظرت إليه قائلة:

«ماذا تعني؟»

«تعرفين ما أعني. صينية القهوة هل تريدين أخذها للسيد «لايول»؟»

هزت كتفيها ثم قالت بخمول:

«إذا أردت».

نظر «بول» إلى وجهها المتكبر وقال:

«هل تريدين نصيحة مني؟»

فقطبت جبينها.

«أي نوع من النصيحة؟»

«لا تكثري من التهديدات. السيد «لايول» ليس ذلك الصنف من الرجال الذي يقبل هذا الموقف ببساطة.

بل... عطاء».

ورفعت «هيلين» أنفها: «أفترض بأن السيد «لايول» يجب أن يطاع دائماً. وماذا تريدني أن أفعل؟ هل أجلس وأنتظر حتى يقرر أن يتركني أذهب؟»

«قد يكون هذا الفعل أفضل شيء تفعلينه».

«لأنه أناني؟»

وهز «بول» كتفيه العريضتين.

«لا أظن من شأنك يا آنسة «جيمس». لا تظني خطأً أن إصابته تنقص من رجولته».

احمرّ خداها وقالت واقفة:

«لا أفهم ماذا تعني».

«أعتقد أنك تفهمين».

وقال وهو يصب القهوة:

«إن كونه يفضل العيش هنا بمفرده لا يعني أنه لا يشعر بالاحتياجات الطبيعية لأي رجل».

أمسكت أنفاسها وقالت بغيظ:

«كنت أظن أنك تستطيع أن تسد جميع احتياجاته يا «بول»».

نظر إليها «بول» نظرة غريبة متفحصة.

«لا يا آنسة «جيمس». إن السيد «لايول» ليس ذلك النوع من الرجال».

لم تعرف «هيلين» أين تخفي وجهها. لم تتصرف بهذه الطريقة السيئة من قبل. وكون «بول» الذي عاملها بمنتهى الطيبة والعطف كان هو الذي أشعل ثورتها وسبب أنه جعلها تشعر بالخجل الشديد.

وصاحت وهي تضغط بيديها على خديها الملتهبين:

«إني آسفة. إنه خطأ لا يغتفر».

وضع «بول» الغطاء على إبريق القهوة ووضع الصينية أمامها على المنضدة وقال برقة:

«أنت مضطربة، مشوشة. أرجو أن تهدئي نفسك. لا شيء من السوء بالدرجة التي

تواعدها. والآن هل ستحملين القهوة للسيد «لابول»؟ ستجدينه في غرفة الجلوس وقد وضعت الفنجان من باب الاحتياط.

ضغطت يداها إلى جانبيها وابتسمت قليلاً.

وإنك لا تستسلم أبداً أليس كذلك؟

فقال إني سأقاتل بطبعي. هل تعرفين من أي باب تدخلين؟

هزت رأسها بالإيجاب.

وأظن ذلك.

التقطت الصينية وسارت إلى باب المطبخ ثم استدارت قائلة:

شكراً يا «بولت»...

إنه جزء من عمل يا آنسة.

عندما فتحت «جيلان» باب غرفة المعيشة وجدت «دومينيك لابول» مستلقياً على الأريكة وعيناه مغلقتان. ولكنه فتحهما عند دخولها وعندما رأى أنها هي التي تحمل صينية القهوة أنزل ساقيه إلى الأرض وحاول القيام. ولكن وجهه تقلص من الضآلة وسقط مرة أخرى على الأريكة ويده تضغط على جبهته من الألم.

وجمدت «جيلان» أنفاسها ثم وضعت الصينية وأسرعت إليه قائلة بقلق:

هل أنت بخير؟

سقطت يده إلى جانبه وأطلق ضحكة وزفرة وهو ينظر إليها ثم قال بتجهم:

نعم... إني على خير ما يرام... أشكرك.

وقفت «جيلان» تريد الشفقة عليه وتقرأ وجهها بقلق... كان يبدو شاحباً ومتعباً وتمنت لو استطاعت أن تفعل شيئاً من أجله... إن رؤيتها له في هذه الحال لم تقلقه بأي شكل من أشكالها برغم اعتقادها أن ذلك كان المفروض أن يكون شعورها... إنها معذرة برغم كل شيء. وكان المتوقع أن تشعر بالسعادة لأن القدر يقتص منه بطريق أخرى. ولكن هذا لم يكن شعورها. كل ما شعرت به هو إحساس مقلق بالعطف عليه ووعي متزايد بانجذابها إليه.

صاح بخشونة:

بحق الله لا تحدقي في هكذا كأنك لم تري مثل هذه البشاعة من قبل! إني أعاني من الصداع النصفي... هل فهمت؟... فليس أشياء أخرى.

وزم شفتيه... ثم تحركت «جيلان» بقلق تحت نظرته الصفراء، مع أنها رأت إنساني عينيه يضيئان كالزجاج وحبات العرق تلمع على جبهته بعد المجهود الذي قام به في محاولة القيام.

وقالت محاولة مساعدته:

هل هناك شيء أستطيع عمله؟

نظر إليها باحتقار ثم سألها:

مثلاً تفرغين رصاصة في رأسي أم ماذا؟

أجابت بسرعة وهي تنظر بعجز حول الغرفة:

لا هذا ولا ذاك... هل لديك دواء تتناوله؟ أستدعي «بولت»؟

وقال أخيراً وهو يغلق عينيه:

نعم أقراص.

وأين هي؟

لست مضطرة الآن لمساعدتي... «بولت» يمكنه إحضارها.

صاحت فيه:

بحق السماء... سأحضرها... إني أريد ذلك... فقط أخبرني أين هي.

وفتح عينيه قليلاً وهو يسند رأسه على الوسادة... للحظة نظر إليها من خلال رموشه الكثيفة. كانت الغرفة مظلمة... جعلت أطرافها تتخلل والدم يجري بسرعة في عروقها.

ثم أغلق عينيه مرة أخرى وقال:

إنها في زجاجة في الدرج العلوي لمكتبي.

تحركت «جيلان» ثم توقفت بتردد. مكتبه؟ أين مكتبه؟ هل كان يعني ذلك المكتب في ركن الغرفة... المكتب الذي رأت صورة الفتاة فوقه؟ عندما بدأت تسير نحوه قال بتعب:

مكتبي في غرفة المكتب.

غرفة المكتب»

تساءلت - جيليان - أين غرفة المكتب؟ فتحت فيها لكنها صمتت. لا بد أنها تقع على الصالة وقد أصبحت تعرف أغلب الأبواب المطلة على الصالة.

خرجت بسرعة من الغرفة سعيدة لأن القهوة لم تكن موجودة ثم نظرت حولها ولاحظت بسرور أنه لم يكن هناك سوى باب واحد غير الأبواب المعروفة لديها. أدارت المقبض ونظرت إلى الداخل. هناك مكتب ضخم من خشب الماهوجني عليه كثير من الأوراق والكتب، وعلى أحد جوانبه آلة كاتبة. لكن المكتب لم يكن هو الذي استحوذ اهتمامها، بل فوق إفريز الشباك - مغطاة تقريباً بالستائر الخضراء الثقيلة .. آلة التليفون.

وكان أول ما خطر لها هو أن ترفع السماعة وتستمع ولكن الأحداث الأخيرة علمتها أن تكون أكثر حذراً إذ لو تأخرت ولو قليلاً لاعتراض مكالمة تليفونية فإن موسيو لابول - سيشك فيها وإذا حضر ورآها.. كما أن - بولت - لا بد سيحضر ليأخذ الصينية. ولذا علما أنها انتهزت فرصة التليفون لن يكون لديها الفرصة لاستعماله ولكن إذا أظهرت أنها لم تره..

أبعدت عينيها عن تلك الصلة المغرية بالعالم الخارجي، ثم اتجهت إلى المكتب وجلست على الكرسي الجلدي الذي خلفه. لا عجب إذن أنه لم يكن يرجعها أن تحضر له الأقراص. ولكن من الواضح أن حاجته الشديدة تغلبت على حسن تقديره. وتذكرت وجهه الذي مزقه الألم ففتحت درج المكتب الأعلى على الجانب الأيمن، ورغم أن مشاعرها كانت ثائرة ضده لرفقه معها لم تستطع تجاهل الألم.

ونظرة سريعة إلى الدرج الذي فتحته أكدت لها عدم وجود زجاجة الأقراص فيه. أغلقته ثانية ثم فتحت الدرج الأيسر لتجده مليئاً بالملفات ولكن في أقصى الداخل وجدت ما كانت تبحث عنه، زجاجة بنية فيها أقراص بيضاء.

ونظرت بدون فهم إلى الأوراق المكومة على المكتب ثم أغلقت الدرج وقامت لتذهب. عندما وصلت إلى الباب كان - بولت - خارجاً من المطبخ فالتفتت ركبتاها عندما تذكرت أنها لم تستعمل التليفون لحسن حظها - بولت - وقطب جبينه عندما رآها تغلق باب غرفة المكتب وقال:

«هل تبحثين عن شيء يا آنسة؟»

اهتزت خلفها وبدا عليها الشعور بالذنب، ورفعت يدها بالزجاجة وقالت وهي تسير ناحية غرفة الجلوس متظاهرة بالثبات:

«الموسيو لابول مصاب بصداع شديد وقد أحضرت له الدواء»

قال - بولت - وقد بدا عليه الانزعاج:

«آه.. سأحضر بعض الماء»

فردت كتفيها رافعة رأسها وقالت برقة:

«إذا أردت»

وعاد - بولت - إلى المطبخ ودخلت هي غرفة الجلوس. كان - موسيو لابول - ما زال مستلقياً على الأريكة وعيناه مغلقتان. أجبرت نفسها أن تتذكر أن هذا هو الرجل الذي يطلبها هنا رغماً عنها.

وسارت نحو الأريكة ونظرت إليه قائلة بهدوء:

«ها هي الأقراص. - بولت - سيحضر لك بعض الماء»

وفتح عينيه المتعبتين وقال وهو يرفع نفسه ويأخذ الزجاجة:

«شكراً.. إنها غلطتي لقد أجهدت نفسي في العمل»

ونظرت - جيليان - وهي تراقبه يفتح الزجاجة ويخرج منها قرصين:

«في العمل؟»

ونظر إلى أعلى نحوها:

«نعم - في العمل - هل ظننت أنني أقضي وقتي بالتكاسل؟»

وهزت كتفيها وسارت بعيداً عن الأريكة. كانت نظراته تتنقل فيها من خلف المسافة القريبة حتى وهو في حالة ضعف.

وأجابت غير مبالية:

«حقاً.. لم أفكر في الأمر»

وانفتح الباب ودخل - بولت - وهو يحمل إبريقاً زجاجياً وسار على الفور إلى الأريكة ونظر إلى - موسيو لابول - برقة ولطف مع

قال وهو يصب له بعض الماء:

بعد هذا وأظن أنك يجب أن تستريح في الفراش».

ألقى دومينيك الأوراق في غضب ثم أبعدها بعض الشيء وأمسك الكوب ليرى «برنت» قائلاً بحنان وهو يمسح فمه بظهر يده:

«لا أظن ذلك».

ونظر إليه «برنت» بلوم:

«أنت تعرف أنك يجب أن تذهب إلى الفراش».

ونظر دومينيك بسخرية في اتجاه «هيلين» وقال:

«هكذا تقول! وأترك ضيفتنا تتناول القهوة بمفردها».

ونهضت «هيلين» بسخط ولكن «برنت» هز رأسه قبل أن تقول شيئاً وقال بحزم:

«ولكن بعد القهوة».

ولكن دومينيك أغلق عينيه مرة أخرى كأن عبئاً يتعبه ثم قال بتسليم:

«حسناً ـ سأخرج».

وتنهد «برنت» وبسط يديه نحو «هيلين» في حركة عاجزة. أحست بشعور سخيف من التعاطف مع «برنت» في نظرتها المشتركة على الرجل. وابتسم دومينيك فجأة وبعنف كأنه على علم تام بالعلاقات الصامتة بينهما:

«حسن السيد ـ كفا عن هذه الإشارات التي تتبادلانها عني».

وسار «برنت» فجأة نحو الباب وهو يقول:

«سأحضر بعد خمس عشرة دقيقة».

بعد انصرافه وقفت «هيلين» في مكانها تتساءل: هل لم تذهب هي أيضاً. من الظاهر أنه سيذهب إلى فراشه لأن هذا في النهاية هو أحسن علاج للصداع النصفي. إن التفكير فيه في فراشه جعل السخونة تسري في جسمها. كان ضعفه الواضح مغرياً بشكل خطير، وأجبرت نفسها أن تتذكر أنه كالحيوان المفترس الذي يحتفظ به وبدائه فهو بلا رحمة ولا يمكن التنبؤ بتصرفاته. ومع ذلك كان قميصه مفتوحاً حول رقبته، وكانت ترى بدايات الشعر الذي ينمو أسفل عنقه، وشعرت

رغبة قوية في أن تلمسه. وودت لو استطاعت أن تداعب شعر رأسه بأطراف أصابعها وترى عضلاته تسترخي تحت يديها.

وفتح عينيه فجأة فوجد عينيها عليه فقال آمراً:

«اجلسي ـ إني أستطيع أن أتحمل. لن يغمى علي أو أي شيء سخيف من هذا القبيل».

وأخفت بحرص نظرتها المكشوفة واتجهت بعصبية إلى الكرسي الذي يواجه المدفأة وجلست على حافته وهي تلوي يديها، وتذكرت أنه من الأفضل أن تستعمل التليفون بمجرد أن تستطيع ذلك. لا بد أنها تهتم بدومينيك الآن أكثر من اللازم.

وعندما تذكرت التليفون أخذت تفكر في الوقت المناسب لاستعماله. الوقت المفضل يتم بعد تناول العشاء هذه الليلة إلا أن العائق الوحيد قد يكون انطلاق شيء في المنزل في ذلك الوقت.

«ألن تصبي القهوة؟»

أيقظها صوته الفاتر من أفكارها فجفلت بعنف.

«معذرة أنا... نعم إذا أردتني أن أفعل».

واستدارت ناحية المنضدة المنخفضة ووضعت الأقداح في أطباقها بطريقة آلية. أدهشتها رائحة القهوة ولكن يديها كانتا ترتعشان وهي تسأل الآن:

«حليب وسكر؟»

«لا ـ كما هي».

أجاب وهو يعتدل في جلسته ليتناول القدح الذي قدمته له.

«شكراً».

وصبت القهوة لنفسها ووضعت السكر وأخذت تقلبه بشدة.

وسألها فجأة:

«هل غيرت رأيك؟»

«غيرت رأيي؟ عن أي شيء؟»

واللحظة المنقطة عليها الأمر

«بالنسبة لشرب القهوة معي»

«آه.. فهمت»

قالت وهي تتنفس بدهشة، وحركت كتفيها

«كان يبدو من غير الممكن أن أدع أي فرصة لاتفاقنا بتغيير رأيك»

وضاقت عيناه.

«هل تعنين أنك تستطيعين ذلك؟»

وضعت فنجانها الفارغ بحركات مضطربة.

«لا أظن»

«ولكن ليس لديك مانع من المحاولة؟»

تنهدت.

«قد أقول إن أحكامك الشعورية بالترف.»

«الترف؟»

وهز رأسه.

«هذا مفهوم للعقل زمنه. وكيف تجرئين أن تقولي ذلك، بأن فعلتي أشعر بالاستنفار نحوك؟»

«لا أفهم هذا القصد.»

«أظن أنك تفهمين. إن انجذابك من لحظات كان يبدو طبيعيًا.»

كانت عيناها تتحاشى عينيه ولكنها الآن نظرت إليه مباشرة.

«يا له من تفكير كريه!»

هز كتفيه.

«إنك تجيدين التمثيل. أنا أشهد لك بذلك. ولكن من الأفضل أن أعترف أني لا أنخدع بسهولة. ولا أحب أن تقضي نفسك في موقف قد يكون الخروج منه أصعب من الموقف الأول.»

سألت بعدم ثبات:

«وما معنى ذلك؟»

كانت عيناه مغلقتين تقريبًا.

«ببساطة لا حاجة بك إلى محاولة إغرائي واستعمال حيلك معي على أمل أن أنسحب من ناحيتك.»

ووثبت واقفة.

«إنك... إنك تشبع غرورك.»

«لا، أنا لا أفعل.»

وقال بجفاف:

«هذا أنا أعترف... إنه أقل خدمة أستطيع تقديمها بعد اهتمامك بي.»

كانت سخريته واضحة فأطبقت شفتيها. كانت ستعلن معرفتها بوجود الفلبيني في حجرة المكتب ورأيه على الأقل ليست كاذبة تمامًا، ولكنها ظلت صامتة. ربما أنها بشكل خاص من أنه شعر بانجذابها إليه وفسر ذلك تفسيرًا خاطئًا. تصور أنها تفكر في استغلال شبابها وجمالها لتغريه وتثنيه عن هدفه. لكن هذا كان أبعد شيء عن الحقيقة. ففي الواقع لم يكن هذا الرجل الضخم القاسي بجسمه المتين استطاع أن يحرك أشواقها ورغباتها الدفينة جعلها تشعر بالاشمئزاز من نفسها. إنها لا تريد أن تنجذب إلى مويسيك، لا تريد، لا تريد أن تشعر بالارتباط بشخصيته القاتلة. وعلى الأخص لا تريد أن تفكر في التعلق الفني لهذا الانجذاب الذي قد يثيره الشعور بيديه القويتين وجسمه النحيل.

قالت وهي ترتعش:

«أظن أنك كريه... إنك فاسد... سمحت للشهوة التي في جسمك أن يشوه روحك.»

فتح عينيه على آخرهما فكانتا قاسيتين كالفحم. ثم قال بخشونة:

«نعم... هذا صحيح ومن الأفضل لك أن تتذكري ذلك دائمًا.»

نظرت إليه عابسة نظرة أخيرة ثم اتجهت إلى الباب. كانت تشعر برغبة في البكاء، وبصداع في رأسها. اللحظة بدا إنسانًا، وقد استجابت بغباء لتلك الشخصية الزائفة.

٤ - يوم أبيض

قضت «هيلين» بقية اليوم في غرفتها على غير رغبتها. قامت بإفراغ بقية حاجياتها من الحقائب ووضعتها في أدراج الخزانة وخزانة الملابس الخشبية. وكانت تحاول أن تقول لنفسها إنه لا داعي لذلك لأنها ستترك هذا المنزل قريباً إلا أن هذا لم يكن يبدو حقيقياً.

في الساعة الواحدة حضر إليها «بول» ليخبرها أن الغداء حاضر. وعندما لم تأت بعد بضع دقائق فتح باب المطبخ وقال:

«أرجو ألا يضايقك هذا ولكني جهزت الغداء هنا لأن السيد «لايول» لن يأكل. فكرت أنك قد تفضلين الأكل معي».

تبعته «هيلين» إلى المطبخ وكلاهما صامتان بالكآبة.

«طبعاً - وإن كنت لست جائعة كثيراً أنا أيضاً».

ولم يرد «بول» بل أجلسها أمام المنضدة الخشبية وبدأ يضع أمامها أطباق الطعام. وأيا كان الطعام الذي أعده كانت رائحته جميلة مما فتح شهيتها.

وقالت بعد أن انتهيا من الطعام وأخذ يصب لها قدحاً ثانياً من القهوة:

«كان الطعام لذيذاً يا «بول». ستجعلني أزداد وزناً إذا لم أكن حريصة».

ضحك «بول» وقال وهو ينظر إلى جسمها النحيف:

«أشك في ذلك كثيراً كما أنه لن يضرك أن تكتسبي بعض الشيء».

ابتسمت «هيلين» وشعرت بالاسترخاء الكامل لأول مرة منذ أن استيقظت هذا الصباح. «بول» رفيق هادئ، ليست له متطلبات مثل سيده.

وعلى ذكر «مسيو لايول» ذهب عنها سرورها. يجب ألا تنسى أبداً أنها هنا

بالرغم منها ومهما كان شعورها تجاهه فهو سجانها.

قالت وهي تحيط بأصابعها حول القدح:

«هل ذهب الشيطان للنوم؟»

هز «بول» رأسه بالإيجاب.

«نعم منذ أكثر من ساعة».

كان يجب أن تكتفي بهذا ولكنها لم تستطع. سألت بطريقة عرضية:

«ما العمل الذي يقوم به؟»

نظر «بول» في قدحه وقال:

«إنه يؤلف كتباً يا آنسة».

أثار هذا اهتمام «هيلين» على الفور فقالت:

«كتباً؟ أي نوع من الكتب؟»

قال «بول» معتذراً:

«لا أظن أنني يجب أن أناقش أمور السيد «لايول» معك يا آنسة. لماذا لا تسألينه هو؟»

تنهدت «هيلين»:

«فعلاً ولماذا؟»

وضع «بول» قدحه ثم قال:

«دعيني الآن أسألك سؤالاً. ما الذي حدث بينكما هذا الصباح؟»

ركزت بصرها على بقايا القهوة في قدحها ثم قالت بخشونة:

«لا شيء. لماذا؟»

قطب «بول» جبينه:

«هكذا قلت أنت».

«هكذا قلت أنت».

سألت «هيلين» بغيظ:

«لم أقل له شيئاً فقد أحضرت له أقراصه اللعينة».

«أفهم من ذلك أنه لم يقدر هذه الملاطفة».

«إن هذا الطيف كبير لما حدث. إن الخروف رجل لطيف»

قام «بيت» ريثما جمع الأشياء المتسخة وهو يقول:

«يجب أن تفهمي.»

ولكنها قاطعته بحدة:

«ماذا يجب أن أفهم أنا أي شيء؟ لماذا لا تحاول أنت أن تفهمني. كيف أشعر أنا؟ لم أطلب أن أحضر هنا. وبالتأكيد أنا لا أريد أن أبقى هنا.»

نظر إليها «بيت» بعطف وقال:

«أنا لا أحب أن أراك حزينة.»

قالت «هيلين» بغضب:

«أنا أشك! لماذا تعترض أبي أني أظن أنه رجع وقبل الأب وأمي كيف يمكنه أن يؤذيني؟»

رفع «بيت» حاجبيه قائلاً بضجر:

«أخبريني أنت.»

حمل الصحون إلى المطبخ ورغم اعتراضه أصرت «هيلين» على مساعدته في تنظيفها. وبعد أن انتهيا ووضعا كل شيء في مكانه وأصبح المطبخ نظيفاً لامعاً مرة ثانية قال:

«السيد «لابول» سيبقى على الأرجح في فراشه طوال بعد الظهر. هل تريدين أن تأتي معي لرؤية الحيوانات الأخرى؟»

نظرت «هيلين» إلى النافذة. كانت الشمس الساطعة قد اختفت جزئياً وربما كان الثلج سيعود للسقوط مرة أخرى. ولكن إغراء الخروج في الهواء الطلق كان لا يقاوم. فقالت ببساطة:

«أنا أحب ذلك جداً.»

وبدا عليه السرور.

«هل لديك حذاء عالٍ للثلج وملابس ثقيلة؟»

«نعم. كنت أتوقع أن أقوم برياضة المشي.»

وابتسمت ابتسامة ساخرة مستورة بنفسها.

وربما عطفاً معطفي.»

«المطبخ. إنه في غرفة الملابس. علقته هناك هذا الصباح.»

سارت «هيلين» إلى الباب بحماس قائلة:

«أعطني خمس دقائق فقط وسأكون مستعدة.»

وهرعت صاعدة السلالم إلى غرفتها وهي تتساءل إذا كانت تستطيع انتهاز هذه الفرصة لتستعمل التليفون. كان «بيت» مشغولاً في المطبخ يستعد للخروج و«موسيو لابول» في الفراش. لكن لا. إن فكرة إفساد العلاقة بينها وبين الخادم المحتشم لم ترق لها وهي لا تريد أن يضبطها في ظروف سخيفة. فتركت ذلك إلى المساء. حاجة إلى أسماً أن تخرج. وأدت مرة أخرى وقد أدخلت ساقي بنطلونها الجينز في حذائها الطويل الثقيل ولبست كنزة إضافية. ثم استعادت معطفها الأحمر من غرفة الملابس في الصالة وتذكرت أنه لم يتأثر من الثلج الذي بلله ثم جمعت شعرها داخل القلنسوة وذهبت لتبحث عن «بيت».

وكان الجو بعد ظهر ذلك اليوم جميلاً. ذكرها بطفولتها عندما انتقلت إلى المدن «بيت» الشتاء فترات باردة مريحة حيث تمتلئ الأرصفة بوحل الثلج وتصبح السيارات أماكن دافئة تنتقل من مبنى مغلق إلى آخر. حتى الوقت المخطط لقضاء عطلات الشتاء في أماكن مثل «جامايكا» و«باربادوس» حيث الشمس ساطعة دائماً لتبعد كآبة الشتاء. ولكن الأمر يختلف هنا. كان الثلج أبيض والهواء منعشاً ولم تكن تشعر بالبرد على الإطلاق فهي شابة وصحتها جيدة. وقد قربت الكثير من وجبة الغداء وكان كل جسمها ينبض بالصحة والسرور.

كان «بيت» يعني بالأبقار في الحظيرة فنظف مكانها وقدم لها التبن الطازج و«هيلين» التي كانت تخشى الأبقار بذلت ما استطاعت من مساعدة لكنها كانت تفضل حظيرة الدجاج حيث كانت تجمع البيض الطازج.

ورأت زحافة مستندة إلى الجدار فأشارت إليها سائلة «بيت» فأوضح لها أنه كان يستعملها أحياناً في نقل طعام الحيوانات. ثم قال:

«وجدتها في سقيفة قديمة عندما أتينا. ومن المحتمل أنها ملك لبعض الأطفال الذين كان أبوهم يأتون للزراعة.»

نظرت إليه «هيلين» وسألت:

«هل يمكننا أن نستعملها؟»

استغرب «بولت»:

«ماذا تعنين؟»

«ألا يوجد منحدر هنا يصلح لأن نستعملها عليه؟»

ضحك «بولت» قائلاً:

«هل تقصدين أن نلعب التزلج؟»

«نعم.. هل تستطيع أن تريني؟»

كانت تستعطفه بكل سحرها.

نظر «بولت» متفحصاً المكان حوله ثم قال:

«حسناً.. هناك منحدر إلى جانب المنزل ولكنه ينتهي إلى الحقول، والحقول مغطى بطبقة رقيقة من الثلج لا تتحمل ثقل أي شخص لذلك يجب تفاديه.

سأكون مرتهناً.. أنا أستطيع أن أوجه الزحافة. أتريدين أن تراقبي؟»

أخيراً استسلم «بولت» وسارا حول المبنى إلى جانبه وكان الثلج هنا نقياً لم يلمسه أحد وكانت «هيلين» سعيدة سعادة صبيانية بأن تسير فيه وتترك آثار أقدامها. كانت الزحافة كبيرة وتكفي لاثنين ولكن في البداية أصر «بولت» أن يقف في أسفل التل بجانب الحقول لئلا يقع ما يكرهه. ولكن عندما رأى أنها تستطيع أن تتحكم في الزحافة وافق أن ينضم إليها وأخذا ينزلقان معاً على المنحدر فسيكونان ناجحة عندما انقلبت الزحافة عند القاع وألقت بهما في الثلج. وكانت أصعب مرحلة هي الصعود إلى أعلى التل مرة ثانية.

وعندما شعرت «هيلين» بالبرد في ساقيها قرر «بولت» أن يكتفيا بهذا القدر وسارا عائدين إلى المنزل في صداقة رزينة، ولاحظت «هيلين» أنها لم تفكر مرة واحدة في الحرب خلال هذه الساعات التي قضياها في الثلج.

أخذت حماماً قبل وجبة العشاء وبعد قليل من التردد لبست ثوباً طويلاً من قماش الصوف الفرنسي المشجر بألوان زرقاء وخضراء. كان لونه يظهر جمال عينيها الأزرق المقترب بالخضرة وطوله يظهر استدارة جسمها برغم أنها لم تكن

تريد أن تعترف بذلك لكن رغبتها في أن تبدو بأحسن صورة كان سببها السخرية الهينة التي وجهها إليها «مونيك لابول» من قبل. كانت تتمنى أن يمتدح مظهرها فتجد الفرصة لاحراجه وربما اغتياظها وكرامتها. ولكن أملها لم يتحقق، عندما دخلت غرفة الجلوس بعد قليل ووجدتها فارغة. وبينما وقفت وسط الغرفة لا تدري ما تفعل، دخل «بولت» وقال باعتذار:

«السيد «لابول» لن ينزل إلى العشاء وسأحضر لك عشاءك بعد دقائق».

أدركت «هيلين» أنها لم تهتم كل هذا الاهتمام بمظهرها.. ثم تمسكت بيديها وقالت بحركة معبرة:

«هلا انضممت إليّ يا «بولت»؟»

نظر «بولت» إلى سرواله القديم وأكمام قميصه المطوية قائلاً:

«وأنا على هذه الصورة يا آنسة؟»

قالت «هيلين» بنفاد صبر:

«بالطبع.. لا يهمني كيف يكون مظهرك.. أنا لا تعجبني فكرة تناول الطعام بمفردي».

استرضى «بولت»:

«حسناً يا آنسة.. اعطيني دقيقة وسأكون معك على الفور».

كان «بولت» قد أعد هذه الليلة شرائح من اللحم مطبوخة في صلصة البصل وجزراً، وكان الحلو فطيرة شوكولاتة. كما شربا معاً كأسين من زجاجة شراب أحمر. وعندما انتهيا جلست «هيلين» مسترخية في كرسيها وابتسمت له بكسل:

«إنك حقاً أحسن طباخ! هل كنت طباخاً في الجيش؟»

هز رأسه بالنفي:

«لا يا آنسة في الأسطول».

«فهمت. ولكن كيف تعلمت الطهي؟»

هز «بولت» كتفيه:

«علمت نفسي يا آنسة. كما قلت لك أنا صاحب سبع مهن.. أعمل كل شيء».

نظرت «هيلين» في أعماق النار في المدفأة.

«وأنت الآن تعمل لدى السيد "دومينيك لايونيل"؟»

«نعم.»

«هل كنت تعمل عنده قبل الحادث؟»

«نعم.»

«وإذن كنت الميكانيكي له؟»

«نعم.»

فكرت "هيلين" في ذلك.

«كان حادثاً مروعاً.. أليس كذلك؟»

قال "بولت" بأسى:

«مات رجلان على الفور.»

«أظن أنك كنت تعرفهما.»

«أحدهما كان شقيق السيد "لايونيل".»

ابتسمت بشفقة:

«هو أكبر أشقائه.»

وهز "بولت" رأسه بالنفي.

«لم يكن ذلك معلوماً لكثيرين. كان يتسابق باسم مستعار لئلا يختلط الأمر مع دومينيك.»

تحركت مشاعر العطف فيها.

«هذا فظيع.»

«نعم.»

قال "بولت" وهو يضع الزجاجة الفارغة على الصينية ويبدأ في جمع الصحون المتسخة:

«أظن أنك كنت ما تزالين شابة في ذلك الوقت.»

اعتدلت "هيلين" في جلستها وقالت:

«كنت أبلغ السادسة عشرة على ما أظن. وكان والدي يهتم جداً بسباق السيارات ويحتفظ بكل الصور وكل مقالات الصحف. تأثر كثيراً بالحادث.»

قال "بولت" بصوت يكاد يكون غير مسموع:

«من منا لم يتأثر؟»

ثم استطرد:

«أشكرك من أجل أن أخبرتني عن "لندن". لم أزرها منذ سنوات.»

قالت "هيلين" وهي تلمس ذراع الكرسي:

«لندن؟ إنها كما هي.»

«ألا تبدين متحمسة؟»

ابتسمت قليلاً:

«لا.. لست متحمسة.»

«لماذا؟ إنها بلدك. أليس كذلك؟»

وضحكت على مثل ما قاله.

«لا أعيش هناك.»

«ولكن لديك أهل. أليس كذلك؟ على الأقل والدك؟»

«نعم. والدي وزوجته أي زوجة الأب التقليدية.»

«ألا تحبينها؟»

«إيزابيلا؟»

هزت كتفيها:

«ليست سيئة على ما أظن. ويمكن أن أقول إننا نتحمل بعضنا.»

«هل لديها أولاد آخرون؟ هل والدك له أولاد آخرون؟»

«للأسف لا.. أنا الوحيدة.»

وحكت أنفها وأضافت:

«ربما تحزن "إيزابيل" كثيراً.»

«لماذا؟»

«لأن... إنها قصة طويلة لا تهمك.»

«هل تهمني؟»

وقطبت جبينها.

www.liilas.com

- عندما كان عمري اثني عشر عاماً تزوج والدي من «إيزابيل». كان هذا أول زواج لها وثاني زواج له.. كانت والدتي قد توفيت وأنا صغيرة جداً. وبالطبع كانت «إيزابيل» تتوقع أن ترزق بأطفال ولكن هذا لم يحدث. وقد رفض والدي أن يتبنى أي أطفال.

ضحكت قليلاً ثم قالت:

- أظن أنه كان المفروض أن أشعر بالامتنان ولكن هذا ليس شعوري.

سأل «بولت»:

- ووالدك يدير تلك الشركة الكبيرة؛ شركة هندسية «أليس كانالاند»؟

- نعم، شركة «لورب» الهندسية.. إنه المدير المسؤول وقد ضاعف أمواله كثيراً خاصة أنه كان يكاد يكون مفلساً عندما توفيت والدتي.

وكان «بولت» يتحدث باهتمام:

- وكيف أصبح ناجحاً؟

- تزوج «إيزابيل لورب».

هز «بولت» رأسه.

- لقد فهمت.. إنه داهية.

- نعم «أليس كانالاند».

تنهدت «هيلين».

- وأدخلوني مدرسة داخلية حتى كبرت وأصبحت أستطيع الاختلاط بالمجتمع.

كانت نظرة «بولت» رقيقة.

- وأنا متأكد أن والدك فعل ذلك لأنه اعتقد أن ذلك أحسن الحلول.

- بأحسن الحلول له.

- لكم جميعاً على ما أظن.

- أبي كان.. أبي رجل طموح وأمي وحدها تستطيع أن تكبح جماحه. وعندما توفيت..

ثم تنهدت «هيلين».

- وما زال طموحاً لكنه الآن يحتاج إليّ ليحقق أهدافه.

- [illegible]

- نعم.

- إذاً كان يخطط لزواج على ما أظن؟

فابتسمت ابتسامة حزينة:

- بولت أيضاً ذكي جداً أليس كذلك؟

وضحك «بولت».

- أظن أن الأمر واضح. ومن هو هذا الرجل؟ هل هو من الأرستقراطيين أو من العاديين؟

- خليط من الاثنين على ما أظن. والده يملك حصة هامة في شركة «بريد» والتي اندمج معها، وهو من سلالة الأراضي الأرستقراطية.

تنهدت: إنه اختيار عظيم.

قالت «هيلين» بحركة لا إرادية:

- أوه... «مايك» على ما يرام وأنا أستريح إليه. قضينا أوقاتاً سعيدة معاً.. ولكني لا أحبه.

- هل أنت متأكدة من ذلك؟

- نعم يا «بولت». تعرفت إلى شباب كثيرين، بعضهم صغير السن وبعضهم ناضج ولكني لم أقابل الشخص الذي يمكنني أن أتصور العيش معه بقية عمري إلى جانبه.. أظن أنني لا أهتم كثيراً بالرجال... أقصد من تلك الناحية..

ولمعت عينا «بولت».

- حقاً هذا كلام غير معقول.

هزت رأسها.

- لا.. إنه ليس كذلك أيها.. لقد حل الشراب عقدة لساني... أنا لست معتادة على الإفضاء بما يحدث لأحد.

قال «بولت» مؤكداً بحنو:

- إذن من الظاهر أنه حان الوقت لأن تتكلمي. هل تتكلمين مع زوجة أبيك «إيزابيل»؟ بالطبع لا. ليس بالطريقة التي تقصدها في أي حالة.

«حسناً»

«أنا لن أهتم - شيبا ما يكفيها من اهتماماتها الخاصة لايصرفها عن أن تشغل بالها بشؤوني أنا»

«والقطة»

«أظن أنه يمكن أن تتحدثي معه ولكنه لا ينصت لما أقول. وخاصة إذا كان هناك شيء لا يريد أن يسمعه»

رفع بولت الصينية وقام وهو يقول:

«أظن أن هذا يكفيه»

قطبت هيلين باستمتاع وسألته بكسل:

«هل أخبرك أحد أنك صنعت جيداً»

«لا. ولكني مستعد دائماً للاستماع إلى الإطراء»

ثم بعد خطوات قال:

«والآن سأغسل هذه الصحون وأذهب للنوم - أنا متعب»

«نعم وكذلك أنا»

قالت ذلك وهي تتثاءب. ثم تذكرت ماذا عليها أن تفعل:

قامت وهي تقول:

«هل تفكر. أنا لم أر شيبا اليوم»

ونظر بولت حوله.

«لا، كانت في المطبخ هذا الصباح ثم ذهبت مع السيد لايزل إلى غرفة نومه منذ دخل لينام»

«هل تنام في غرفته»

هز بولت رأسه بالنفي:

«بالطبع لا. سأحضرها إلى الدور الأرضي قبل النوم. يجب أن أخرج القطة»

«لأنها تنطلق في المنزل ليلاً»

نظر إليها بولت نظرة تقليدية:

«هل تفكرين في الهرب - أم ماذا»

«اعترفت هيلين»

«لا. كنت أريد فقط أن أعرف»

«حسناً - في الواقع أنها تنام في المطبخ»

«دهشت - إنه أمر غريب أن يحتفظ بهذا الحيوان كأنه أليف أليس كذلك»

«ربما - أعطاها أحد الأصدقاء للسيد لايزل. ولكن هذا الشخص سيسترجعها قريباً بعد الإنجاب»

استرخت هيلين «هذا أفضل»

«إذن حسناً - تصبح على خير»

«تصبحين على خير يا آنسة»

وخرج وتركها - تساءلت ما ستفعل الآن؟ هل ستبقى هنا حتى يذهب بولت إلى حجرة سيده في الطابق العلوي ويحضر القطة ويأخذها إلى الخارج ثم يذهب لينام - لا إن هذا قد يثير الشك. أحسن خطة هي أن تذهب إلى غرفتها وتنتظر حتى يهدأ المنزل.

بعد أن اتخذت قرارها صعدت بهدوء إلى غرفتها. كانت خائفة لعلمها أن شيبا موجودة في مكان قريب لكنها وصلت بسلام. وخلعت ثوبها الطويل وارتدت البنطلون الجينز والفانلة الصوفية وجلست تنتظر.

لم تكن الغرفة دافئة رغم المدفأة الكهربائية كغرفة الجلوس في الطابق الأرضي. وبعد قليل بدأت ترتجف. وشعرت أنه مر وقت طويل جداً قبل أن تسمع صوت بولت وهو يصعد السلالم ثم سمعت أصواتاً في الطرف الآخر من الممر فتأكدت أن مسيو لايزل ما زال يقظاً أيضاً.

فقامت وأغلقت مزلاج الغرفة لكنها استمرت تشعر بالبرد. فخلعت حذاءها وذهبت إلى السرير وسحبت الغطاء عليها. وشعرت بالدفء والحرارة تشع من زجاجات المياه الساخنة التي وضعها بولت بين الملاءات.

كان الثلج في الخارج يغطي إطار نافذة الغرفة. وسمعت الريح تصفر تحت النوافذ. وكان السرير دافئاً. وتثاءبت والنعاس يداعبها وأغمضت عينيها - كان بولت لطيفاً جداً، ولكنها هي التي تكلمت طوال الوقت هذا المساء. إنه يعرف

كل شيء عنها الآن، حتى عن مايك... تثاءبت مرة أخرى. أوه، لا أهمية لذلك إنه ليس سراً.

ثقلت عيناها أكثر فأكثر، تنهدت ثم استغرقت في النوم. وعندما فتحت عينيها مرة أخرى كان ضوء النهار يملأ الغرفة ولشدة أسفها أدركت أنه الصباح.

٥ ـ الكتاب

لحسن حظ هيلين أنها استطاعت غسل وتغيير ملابسها قبل أن يحضر بولت بإفطارها. لم تكن تريده يرى أنها نامت بكل ملابسها لئلا يأخذ انطباعاً خاطئاً عنها. أما الآن، وهي أمام المرآة تمشط شعرها وتشعر بالنشوة والحيوية، ارتدت بنطلوناً من الجينز، وبلوزة بنفسجية ذات أكمام طويلة، طرق بولت الباب ودخل باسماً.

«صباح الخير. هل نمت جيداً؟»

استطاعت أن تلقي تحيتها بالمثل.

«نعم، أشكرك. وأنت؟»

«نمت مثل الطفل.»

قال وهو يضع الصينية التي يحملها على المنضدة بجانب سريرها:

«أحضرت لك فطوراً... وربما أعجبك.»

«هذا لطيف.»

ثم قالت وهي تنظر نحو النافذة:

«هل سقط الثلج مرة أخرى؟»

«نعم، اليوم ليس صحواً كالبارحة. كما أن الجو أشد برودة.»

وتنهدت هيلين:

«أوه... ليس مهماً.»

جلست بجانب الصينية ثم سألت:

«كيف حال مريضك اليوم؟»

قال بولت بسرور ظاهر:

«أحسن قليلاً. سأراه بعد قليل.»

ابتسمت هيلين وتركت الغرفة.

استمتعت بإفطارها ولكن ليس كالأمس. أمس كانت جائعة جداً. لكنها اليوم مضطربة لأنها نامت هذا النوم العميق. كانت الوجبة شهية رغم ذلك وعندما انتهت حملت الصينية الفارغة إلى المطبخ وكانت تينا مستلقية على السجادة في الصالة خارج غرفة مكتب دومينيك لايول. وعندما نزلت هيلين السلالم رفعت رأسها ـ اشمأزت لتلك النظرة الخفيفة ولكن الفهدة لم تتحرك. وسارت هيلين بسرعة إلى المطبخ.

لم يكن دايك موجوداً وبدون تفكير وضعت الأطباق في الحوض وغسلت الصحون، ولم تكن غسلت أطباقاً منذ تركت المدرسة الداخلية.

«صباح الخير يا آنسة جيمس ـ هل أعطل عملك؟»

«صباح الخير يا سيد لايول. إنك لا تعطل أي شيء. أية خدمة أستطيع أن أقدمها لك؟»

كان يرتدي بنطلون جينز أزرق وقميصاً جينز مفتوحاً عند الرقبة مما يجعله يبدو رشيقاً شاباً، وكان البنطلون الضيق يزيده طولاً. وعرجه لا يبدو ظاهراً طالما هو لا يتحرك. ولكن حتى عندما سار نحوها لم تجد في عرجه ما يثير اشمئزازها بل بالعكس فالطريقة التي كان يتحرك بها كانت جزءاً من شخصيته.

وقال بهدوء:

«جئت لأعتذر عن تصرفي البارحة أنا آسف»

كانت هيلين تتوقع ـ توقعت أشياء كثيرة غضباً ووقاحة وربما صمتاً ولكنها لم تتوقع هذا. تمنت لو أنه لم يفعل. كان أسهل عليها كثيراً أن تكرهه عندما يعاملها بعدم احترام.

وقالت بخشونة:

«أنا.. لا داعي لذلك»

«إذاً لا أزعجك»

قال وهو يقترب منها وبينهما مسافة صغيرة، ونظرة عينيه الصفراوين ثاقبة أكثر من اللازم:

«تصرفي الوحيد أني كنت متعباً» ومع ذلك لم يكن لي الحق لما قلته رغم رأيك في لم أكن دائماً على هذه الدرجة من سوء الأخلاق»

سحبت هيلين يديها من الماء المختلط بالصابون وجففتهما. وكانت تشعر بشدة بقربه منها وكانت تشك أنه يعرف ذلك.

«حسناً انتهى الأمر الآن كيف حال الصداع الصغير؟»

«أحسن كثيراً»

كان يسند نفسه بيد واحدة على الخشبة الصلبة وتركزت نظرتها على أزرار قميصه الأسفل فوق حزام بنطلونه الجينز.

استطاعت أن ترد باقتضاب:

«حسناً»

«لا داعي لأن تقومي بغسل أطباقك»

«بل أريد ذلك»

أجبرت نفسها على النظر إليه.

«هل تعلم أين ذهب دايك؟»

قال بدون تحديد:

«نعم أعلم ذلك»

نظرت حولها

«ظننت أني قد أخرج قليلاً يبدو أن الثلج سيسقط ثانية و...»

قاطعها دومينيك وهو يفحص وجهها المحرج:

«هل تستطيعين عمل القهوة؟»

قالت باستغراب:

«نعم أظن ذلك»

قال وهو يبتعد ويطلق ضحكة ثانية:

«حسناً أحضري لنا بعض القهوة إذا سمحت»

ردت هيلين:

«حاضر»

قال وهو يخرج صوب الباب:

«بالطبع، وأحضريها إلى المكتب عندما تنتهين سنشربها معاً.»

وأغلق الباب فوقفت «هيلين» تتنقل في المكان حيث كان يقف منذ لحظة. لم تكن تعرف إذا كان هذا إهانة أو تكريماً لها. لم تكن معتادة على تلقي الأوامر، لكنها شعرت أنه يروق [illegible].

ولكن المكتب؟ طلب منها أن تذهب إليه هناك؟ وماذا عن التليفون؟

تركت كتابها وتطرقت بحذر حول المطبخ. كانت تعرف مكان البن إذ رأيت «بولت» وهو يعدّ القهوة لها في اليوم السابق. أما جهاز تحضير القهوة فهو معروف لديها.

وجدت أنها تستمتع بإعداد الصينية بشيء من الفخار، وأطباقها اللذين استعملهما «بولت». وأكثر من ذلك وجدت السخان الصغير الذي يوضع تحت إبريق القهوة ليبقيها ساخنة. كانت تتوقع كل لحظة أن يعود «بولت» ويحاسبها على ما تفعله، لكنه لم يعد.

وعندما انتهت من إعداد القهوة حملت الصينية وذهبت بها إلى المكتب. لم تكن «شيا» مرتجفة ولكن سرعان ما عثرت ارتباكها عندما طرقت باب غرفة المكتب ففتح لها «دومينيك» الباب وكانت اليد في أعقابه، ولكنه أمرها بالخروج فخرجت إلى الصالة ووقفت في وضعها الأول. تنحى «دومينيك» عن الباب ليسمح لها بالدخول. وجدت أنه أفسح مكاناً على مكتبه لتضع الصينية. وانتقلت نظراتها رغماً عنها إلى إبريز الشباك في الركن. لكن التليفون لم يكن هناك. توقف قلبها من الخفقان لحظة. هل كشفت؟ أم أنه لا يزال... أنها اكتشفته تمام ربما؟ لاحظت أن الستائر الحمراء تغطي إبريز الشباك جزئياً من الطاولة أنها خفية؟ هل يعلمون ذلك عن عمد؟ إنها لا تستطيع أن تتأكد من ذلك.

أشار «دومينيك» إلى كرسي على الناحية الأخرى من المكتب لتجلس عليه. وبعد أن جلست عاد إلى مقعده. ولاحظت أنه يتوقع أن تسكب القهوة فسكبت له قدحاً وتركته بدون سكر.

قال وهو يتناول القدح ويضعه أمامه:

«شكراً. كنت بحاجة إلى القهوة.»

لم تعرف «هيلين» بماذا ترد عليه ولكنها حاولت أن تتحدث معه بمسألة «بولت»: أخبرني أنك تؤلف كتاباً.

«حقاً؟»

حدجها بنظرة عبر المكتب وهي تتساءل إذا كانت أخطأت القول مرة أخرى.

«نعم، ولكنه لم يقل لي شيئاً آخر. أعني أنه رفض مناقشة الموضوع معي.»

«هل طلبت منه ذلك؟»

قالت «هيلين» وقد احمرت خجلاً:

«نعم... أثار ذلك اهتمامي.»

أمال «دومينيك» رأسه وسألها:

«لماذا؟»

«أظن أن تأليف كتاب لا بد أن يكون تحدياً ضخماً.»

فكر في كلامها ثم قال:

«إنه يتوقف على نوع الكتاب الذي يكتبه المرء. أظن أن بعض الكتب أصعب من سواها.»

قطبت «هيلين» جبينها:

«أظن أن كتابة الرواية أسهل من الكتب غير الخيالية.»

هز رأسه بالنفي:

«ليس بالضرورة. إذا كان الشخص يكتب عن قصة حقيقية فالأمر ينحصر في تقديم الحقائق بطريقة ممتعة. أما القصص الخيالية فتحتاج لعاطفة فائقة بلا حسابات مسبقة.»

«لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة.»

فقالت وهي ترتشف قهوتها بعد أن تذوقتها وقد وجدتها لذيذة كالقهوة التي يعدها «بولت»:

«هل المكتب رواية؟»

هز رأسه بالنفي:

«أما أنا، كتابي واقعي للغاية.»

قالت بحنق:

«هل هو عن سباق السيارات؟»

«هذه المرة نعم.»

ورفعت حاجبيها.

«هل كتبت كتبا أخرى؟»

«كتاباً واحداً.»

«وماذا كان موضوعه؟»

ابتسم بشيء من السخرية الساخرة.

«أنا متأكد أنك لست مهتمة حقيقة.»

احمرّ وجهها.

«أوه.. ولكني مهتمة فعلاً.»

تردد ثم قال وهو يدفع نفسه على المكتب.

«كتبت تاريخ حياة والدي.»

أثارها ذلك.

«والدك؟ كان ضابطاً في الأسطول. أليس كذلك؟»

بدا عليه الضيق.

«أتعرفه يا بولت أيضاً.. على ما أظن؟»

«نعم ولكن فقط بطريق غير مباشرة. كان يقول لي إنه كان في الجيش. لم أفهم منه ذلك بدون قصده.»

نظرت إليه باستعطاف.

«هل تتعجب منه. أليس كذلك؟»

قهقه دومينيك.

«هكذا معظم أسرتي أيضاً.»

هزت كتفيها النحيلتين.

«لا لي، تقريباً أسرة من والدي – على ما زال حياً؟»

تكلم "دومينيك" بلا عاطفة.

«لا. ماتت منذ ست سنوات.»

«في الوقت نفسه تقريباً عندما وقع الحادث؟»

قالت ذلك بلا تفكير ثم بعد أن رأت وجهه تمنت لو أنها لم تفعل. ولكن بلا شعور:

«نعم في الوقت نفسه تقريباً. هل أستطيع أن آخذ مزيداً من القهوة؟»

«بالطبع.»

كانت "هيلين" سعيدة أنها تستطيع أن تفعل شيئاً. تكلمت بلا تفكير وبذلك قطعت الخيط الرفيع الذي بدأ يصل بينهما.

«تفضل.»

توقفت وهي تبدو مضطربة.

«إني آسفة! أقصد عن والدك.»

لم يتكلم "دومينيك" بضع ثوان فظنت أنه لن يجيبها ولكنه قال بعد:

«كان يقود قوة كوماندوس في الشرق الأقصى خلال الحرب. ومنح وسام فيكتوريا لأنه تقدم هجوماً على مركز لليابانيين في الوقت الذي كان عدد رجاله أقل كثيراً من رجال العدو.»

«هذا رائع! لا بد أنك شعرت بالفخر الشديد به.»

قال موافقاً.

«شعرت أنني كذلك.. لم أكن بالغاً إلى هذا الحد أنا "فرانسيس". فكان مازال طفلاً.»

«لم أقصد ذلك.. أي..»

شعرت "هيلين" بوجهها يحمر مرة أخرى وبحسن الحظ أن خجلها منعها من توجيه الأسئلة الأخرى التي كانت أن تنطق بها عن كان "فرانسيس" شقيقه التوءم؟ الشقيق الذي قتل في ذلك الحادث المشؤوم؟ لو كانت قد ألحت عليها بشخصية شقيقه الآخر "دومينيك" أن "بولت" الذي الحادث معها بدا هو في الواقع أصرّ على عدم الكلام في هذا الموضوع

وانتهى «دومينيك» من قدحه الثاني ووضعه جانباً وسحب كمية من الأوراق أمامه. كان هذا يعني أنه على «هيلين» أن تنصرف. شعرت بخيبة أمل بلا سبب معقول لكنها كانت مضطرة أن تقوم وتجمع ما أحضرته في الصينية قبل أن تذهب. ورفع «دومينيك» بصره وهي تضع الأطباق محدثة صوتاً عالياً وفهمت أنه شعر بعصبيتها التي لم تستطع إخفاءها فقال بهدوء:

«سيحضر «بولت» سريعاً لا حاجة بك للاهتمام بهذه الأشياء. تستطيعين أن تنصرفي».

التقطت «هيلين» الصينية وسارت نحو الباب لكنه قفز بخفة وبرشاقة مدهشتين ووصل إلى الباب قبلها وتسارعت أنفاسه نتيجة الجهد القاسي. ونظرت «هيلين» إلى النبض الذي يتحرك عند قاعدة عنقه ثم لمحة من جلده الذي ظهر من بين أزرار قميصه المفتوح، وانتقلت نظراتها آلياً إلى يده التي امتدت لفتحه وشعرت بنبض عنيف في أذنيها. للحظة سرى بينهما شعور ملموس بالانجذاب وكانت متأكدة أنها لو اقتربت قليلاً منه لشعرت على الفور بتجاوبه الأكيد. كانت غريزة مسكرة. وقد عبرت عيناها القلقتان رجاءها إلى عينيه بطلاقة من مشاعرها لكن تعبيره خدعها. كان يقول: بالإرادة وبالرفض القسري الشامل التي كانت متأكدة أنها أثارتها فيه. فتح الباب بعنف وبلا مقدمات. ورغم أنها كانت متأكدة أنه كان سيقول شيئاً لكنه بقي صامتاً.

وفي المطبخ التقطت أنفاسها ودهشة كرد فعل لما حدث. اللحظات كان تصرفها غريباً وغير مفهوم لما أصابها. ما الذي يحدث لها مؤخراً؟ «دومينيك لايول» الثلاثة أيام فقط ومع ذلك استطاع في هذه المدة القصيرة أن يسيطر على عقلها ويفقدها الإدراك السليم لدرجة أنها أصبحت تتخيل علاقات بينهما لم يكن لها وجود إلا في مخيلتها. ضغطت راحتيها على خديها الملتهبتين. يجب أن تهرب. يجب أن تهرب من هنا قبل أن يحدث شيء. لا يمكن علاجه. أغمضت عينيها وهي تتذكر القدر الذي منع «دومينيك لايول» من أن ينصرف بناء على استفزازها الغبي. كانت تقفز من جلدها عندما سمعت «بولت» يقول باحترام:

«معذرة يا «هيلين»... هل تبكين؟»

فتحت عينيها

«لا... لا أنا لا أبكي».

هزت رأسها لتدفع عنها ذلك الشعور الغامر بالقدر الذي كانت تحس به طوال حياتها

«من أين جئت؟»

ابتسم «بولت»:

«حضرت من خلف الدار. كنت أعلق معطفي».

«أين كنت؟»

تنهد «بولت»:

«ذهبت إلى البريد».

حدقت «هيلين» فيه.

«أين؟»

«في القرية...»

«آه... بالطبع ولم يكن في استطاعتك أن تصحبني معك».

نظر إليها «بولت» بتعبير ثابت.

«لا».

رأى الصينية على المنضدة أمامها

«ما هذا؟ هل كنت تصنعين القهوة يا آنسة؟»

هزت «هيلين» رأسها بالإيجاب.

«عذراً «هيلين» منذ لحظات يمكنك أن تدعوني كذلك إذا أردت. إني أفضله على كلمة آنسة».

هز «بولت» رأسه.

«كنت غاضباً عليك. وقد كانت زلة لسان».

قالت «هيلين» بضيق:

«وأنا أيضاً زل لساني. لحظات وتذكرت أني علمت أن والده كان في الجيش.

«وماذا حدث؟»

«أظن أنه يحتاج أحداً كما تحتاجين في أموره».

وتنهدت:

«ماذا سنفعل الآن؟»

«إذا كان السيد لايول قد شرب قهوته أظن أني أستطيع البدء في إعداد الغداء».

وضعت هيلين يديها في جيبي بنطلونها:

«وماذا عني أنا؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟»

«ماذا تريدين أن تفعلي؟»

قالت بسخرية:

«لا بد أنه [illegible]»

«بغض النظر عن ذلك».

«إني لا أدري. ألا تزورون أحداً هنا؟ أقصد ألا يأتي إليكم أي زائر؟»

«أحياناً».

«من؟»

«أصدقاء السيد لايول».

«رجال أم نساء؟»

«الرجال».

استغربت هيلين هذا بشكل ما. كانت تظن أن أحداً يزوره. إن الانطباع السائد أنه مات أو أنه يعيش خارج البلاد جعلها تفترض أن أحداً لا يعلم بمكانه. ولكن بالطبع لا بد أن له أصدقاء، ومن الممكن أقرباء، يعلمون أنه يعيش هنا. وكانت تود لو استطاعت أن تسأل عن زائرين من النساء، ولكنها شعرت بشكل ما أن بولت لن يتكلم عن هذا الموضوع كما لن يتكلم عن غيره. ومع ذلك فإنها لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتصوره مع امرأة أخرى، وقد ضايقتها هذه الصورة.

قالت فجأة:

«سأذهب إلى غرفتي».

نظر بولت إليها باستغراب ثم قال مسرعاً وهو يجفف يديه:

«حسبما تشائين يا آنسة».

ولكنها هزت رأسها وانصرفت.

في غرفتها ألقت بنفسها على السرير ذي الزركشة، ونظرت بعبوس إلى السقف. كانت تشعر بالاكتئاب الشديد. كل شيء يضايقها: هذا المنزل وظروفها وبخاصة دومينيك لايول. إنها لا تفهم ما الذي يجذبها إليه. إنه ليس وسيماً ولا جميل الشكل رغم أن بعض النساء قد يجدن في ملامحه الخشنة وعينيه الغائرتين ذات الجفون الثقيلة بعض الجاذبية، ولكن موقفه منها كان دائم السخرية. كما أنه كان يستطيع أن يكون شديد الوقاحة إذا شاء. فلماذا ينشغل فكرها إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تفكر في واقعها وما قد يكون لهذه العلاقة من تأثير عليها بدلاً من أن تنغمس في هذه العاطفة غير المقبولة. إنه تصرف غير طبيعي وغير معقول وهي تستحق هذا الشعور بالاكتئاب.

حاولت من جديد أن تسترجع صورة مايك ترافيلي إلى ذهنها. إنه الرجل الذي يريدها والدها أن تتزوجه. إنه شاب غني وجميل. كل صديقاتها يحسدنها عليه ومع ذلك فهو لا يحركها.

أخذت تشد خصلة من شعرها الأسود الناعم وهي تسترجع الشعور الذي شعرت به عندما قبلها للمرة الأولى. وقد قبلها بعد ذلك عدة مرات وهي تظن أنها استجابت على قبلته ولكنها لم تستمتع بها أبداً. فكرت بيأس بلا أن هناك شيئاً غير طبيعي فيها. لماذا لا تنجذب؟ لماذا هذا الشعور بالتوتر كلما حاول أن يلمسها؟ ولهذا كانت فكرة الزواج به تملؤها بالنفور.

ظنت أن العيب فيها هي، وأن هناك شيئاً ينقصها ولكنها الآن ليست متأكدة من ذلك. تذكرت الطريقة التي استجابت بها لقرب دومينيك لايول منها فشعرت بسخونة ترطب جسمها ولاحظت أنها لم تشعر بالانكماش بداخلها من لمسة يده.

شعرت بالقوة الشديدة من ردود فعلها المختلفة. هل فقدت التحكم في مشاعرها؟ هل هو ما يسميه الناس عندما يتكلمون عن الانجذاب الجسماني؟ هل

في مشكلتها هل أصبحت مفتونة بهذا الرجل القاسي المتغطرس؟ هذا لا يعقل أبداً. ولكن هل هناك تفسير آخر؟

اعتدلت جالسة.. أصبحت خيالية أكثر من اللازم. لا بد أن السبب نقاهتها وعندما أقضي الوقت أفكر وأتخيل الأشياء. قامت من السرير واتجهت إلى الحمام إنها لا تشعر بالراحة. قررت أن تأخذ حماماً يشغلها قليلاً ويساعد على تمضية الوقت حتى المساء عندما ستستعمل التلفون كما قررت.

خرجت بعد الظهر للنزهة مع بول.

لقد تناول دومينيك لابول غداءه في مكتبه وتناولت هي غداءها مع الخادم في المطبخ. وبعد أن انتهى من غسل الصحون اقترح بول أن يخرجا قليلاً. شعرت هيلين أنه يحاول أن يعوضها عن عدم أخذها معه في الصباح إلى مكتب البريد. لم تستطع إلا أن تتساءل عن بعد مكتب البريد عن المنزل. إذا كان بول قد استطاع أن يذهب ويعود في حوالي ساعة إذن فهو ليس على مسافة كبيرة.

عندما خرجت رأت آثار عجلات سيارة وقد سوّت الثلج الذي في الدرب التي سلكته مع دومينيك عندما أحضرها في المرة الأولى وشعرت أنه لا بد أن يكون لديهم عربة من نوع ما.

- هل لديكم سيارة؟

سألت وهي تقف داخل حظيرة الأبقار تراقب بول وهو ينظف الروث من الحظائر. إذا كان لديهم سيارة.. وهذا أفضل.. قد تستطيع أن تهرب بها. لا تستطيع أن تقودها وهي داخل السيارة.

استند بول على الجاروف ونظر إليها قائلاً بلطف:

- لدينا عربة جيب.

- آه.. صحيح؟

حاولت هيلين إخفاء سرورها الشديد:

- ولكني لم أرها هنا.

قال بول وهو يعود لعمله:

- من الجائز لأنها كانت في الكاراج هل من السهل أن تقود سيارة من هذا النوع؟

ابتسمت هيلين ضاحكة مرحة:

- بالطبع لا.. لا أعرف كيف أبدأ.

وبدا على بول أنه صدقها

قال وهو يحمل الروث للخارج:

- وإنها ليست دائماً سهلة إذا لم تكوني معتادة عليها.

أنهت هيلين الموضوع. شعرت أن بول يحاول أن يقول لها شيئاً ما ولكنها لم ترد أن تستمع.

وبعد ذلك أخذها للسير مسافة من التل خلف المنزل وكان الجو كما قال من قبل أبرد كثيراً لكن الحركة جعلت الدم يجري في عروقها وعادت إلى المنزل وهي تشعر أنها أكثر مرحاً ولو أنها غير متأكدة إذا كان هذا الخروج أم نتيجة معرفتها بأن تلك العربة تنتظرها في ذلك الكاراج.

وارتدت ثوباً طويلاً آخر ذلك المساء للعشاء. كان أحد أثوابها المفضلة بلون الياقوت الأزرق برقبة منخفضة تظهر نقاء جلدها الأبيض وبأكمام طويلة تنتهي بطرف مدبب عند الرسغين. ورفعت شعرها على الجانبين وشبكته بمشبك من الماس عند قمة رأسها وتركت خصلتين متموجتين قرب أذنيها. وكانت عادة لا تضع إلا قليلاً من الماكياج وهذه الليلة أظهرت لون عينيها بقليل من الظل الأخضر وطلت شفتيها بأحمر شفاه برتقالي.

كان دومينيك لابول في غرفة الجلوس عندما دخلت وكان يسكب لنفسه كأساً من الشراب بجانبه. نظر إليها بتأمل دون أن يبدي أي إعجاب كانت تنتظره. كما أنه لم يقم لاستقبالها. ترددت قليلاً قرب الباب وهي تنظر إلى القطة أمام المدفأة عند قدميه.

ضغط على القطة بقدمه حتى لا تتحرك ثم قال:

- آنستي، أرجو أن تعذريني إذا لم أقف لأني هذا المساء أجد من الأسهل أن أبقى جالساً.

شبكت هيلين يديها وتقدمت. تمنت لو أنها لم تهتم إلى هذه الدرجة بمظهرها

شعرت أنها متأنقة أكثر من اللازم بينما يرنو في ملابسه السوداء التي ارتداها اليوم السابق ويبدو كشيطان [illegible].

عندما جلست سكب لها قليلاً من الشراب وأضاف بعض الصودا وقدمه لها. أخذته جيلين لأنه كان يتوقع ذلك ولكنها لم تكن تحب هذا الشراب كثيراً.

قال وهو يتفحصها بوقاحة بعينيه الساخرتين:

- هل هذا من أجل رايت أم من أجلي؟

رفضت جيلين أن تتأثر بطريقته وردت ببرود:

- أنا معتادة على ارتداء ملابس خاصة للعشاء، وأبي يقول إن هذا يرفع الروح المعنوية.

هز دومينيك رأسه موافقاً:

- هل يقول ذلك؟ وكيف حال روحك المعنوية هذا المساء؟

تجاهلت سؤاله:

- [illegible]

- [illegible] على السؤال بسؤال آخر؟ أنا أريد أن أعرف كيف تستطيعين [illegible] معه.

ردت جيلين بغضب:

- يجب أن تعرف أني لا أستمتع به على الإطلاق.

- بالعكس - يبدو لي أنك كنت تتشاجرين وتتصرفين وتستمتعين بالفوز [illegible]. أليس هذا هو ما أتيت للشمال من أجله؟

قالت بعصبية:

- أتيت إلى الشمال لأكون مستقلة وليس لأستبدل عبودية بعبودية أخرى.

- أخبريني بهذا السبب.

وبدأت السخرية تختفي من صوته - وشعرت بأطرافها السفلى تتخاذل. نظرت إليه وهي ترتعش محاولة أن تقرأ التعبير في عينيه اللتين تخفيهما رموشه الكثيفة.

كان فمه يتململ بالرغبة وهو يرد نظرتها فشعرت بأن كل عظامها تذوب في لهيب أشواقها التي لم تشعر بمثلها من قبل. وكان الدم يتدفق بجنون في عروقها وأصبح تنفسها سريعاً ومتقطعاً. كانت تريد أن تذهب إليه وتضع ذراعيها حوله وتقول له إنه إذا كان يريدها فهي لن تذهب أبداً. ولكن هذا جنون مطلق.

افترقت شفتاها ولكن قبل أن تنطق قام فجأة ثم أجفل من الألم لاصطدام ساقه.

انتقل عبر الغرفة ولكنه لم ينتقل إليها كما كانت تشعر به. على الفور التفتت ووقفت وراءه. كان يقف مستنداً بظهره على طرف المكتب وظهره إليها وكان [illegible] من شدة تلك الضربة أنها وقفت وراءه لا تدري ماذا تفعل وقالت:

- هل... هل أنت بخير؟

قال من بين أسنانه بدون أن يستدير:

- نعم... أنا على خير ما يرام.

تركت يديها

- هل أنت متأكد؟ هل أستطيع أن أحضر لك أي [illegible]؟ هل أنادي رايت؟

استدار ناحيتها واستند على المكتب ووجهه يعكس الإثارة نفسها التي أصبحت تعرفها. ثم قال بخشونة وقد شحب وجهه أكثر من العادة:

- أنا أقدر هذا الاهتمام بي وخاصة بعد ما قلته. ولكن لا يا آنسة جيمس - لا يوجد شيء تستطيعين عمله - أشكرك.

كانت ستحتج على ما قاله ولكنها شعرت بأنه مصرّ على موقفه الجامد ولا فائدة من الكلام. وكان وصول رايت في هذه اللحظة حاملاً العشاء منهياً الحديث بينهما.

لاحظ الخادم قربهما لبعض بجانب المكتب بفضول واضح ولكنه لم يقل كلمة ووضع الصينية على المنضدة المنخفضة بجانب المدفأة.

عاد دومينيك وهو يعرج لجلسته ولاحظت جيلين التوتر نفسه لكنها نظرت باستغراب عندما قال:

- تعال انضم إلينا في العشاء يا رايت. أنا متأكد أن الآنسة جيمس تجد

www.liilas.com

صحبتك أكثر متعة من صحبتي».

ابتسم «بولت» ولكن يبدو أن تعليقاً ما لم يرضه وبدت العبوسة فابتسم وقبل الدعوة وهو يقول:

«شكراً يا سيدي، أنا أحب ذلك».

«حسناً فليكن عشاء لثلاثتنا».

أما «دومينيك» فتراخى على كرسيه وأسند ساقه المصابة على السياج الخشبي الذي يحيط بالشرفة. تساءلت «جيلين» وهي تنظر إليه عن السبب الذي يجعل كل حركاته أكثر إثارة وسحراً لها. ولكن عندما رفعت نظرها إليه لم تستطع أن تفهم تعبيره.

وبالطبع لم يكن العشاء ممتعاً على الإطلاق. شعرت «جيلين» بشدة أن دعوة «دومينيك» لبولت كان سببها المشهد الذي حدث بينهما قبل وصول الطعام، ووجدت نفسها في وضع محرج وهي تشعر أنه يحق لها من عمد أن تصرفها فيه إحراج له، له هو!

شعرت «جيلين» بالإهانة والضيق. ما الذي كان يعنيه عندما ينظر إليها بطريقة معينة تقتضي كل مشاعرها له وتصبح رهن إشارته؟ هل كان يفعل ذلك عن عمد، أم أنه انجذاب لا إرادي؟ أم أن طبيعته المسرفة كانت تجد لذة في سذاجتها؟ لم تأكل إلا قليلاً من الدجاج المحمر الذي أعده «بولت» ولكن لحسن الحظ أن الرجلين كانت لديهما مواضيع كثيرة للحديث مما جعلهما لا يلاحظان عدم شهيتها للطعام.

عندما انتهت الوجبة، وكان الرجلان يدخنان، نظر «دومينيك» إلى «جيلين» وقال بتعمد .. كما اعتقدت:

«أظن أني سأقضي بعض الوقت هنا الليلة يا «بولت» .. لست متعباً فقد استرحت بعد الظهر عندما كنا في الخارج وسأسهر بعض الوقت».

قال «بولت» بحسم:

«هذا حسن طالما لا تجهد نفسك».

وقال «دومينيك» وهو يتمطى بكسل وينظر إلى وجه «جيلين» الذي بدت

عليه خيبة الأمل فجأة:

«إذا كنا سنترك هذا المكان قريباً يجب أن أحاول الانتهاء من كتابي».

نظرت «جيلين» إلى يديها المطويتين وهي تحس بالامتنان الآن لأنه يعلم أنها رأت المخطوطات في المكتب، وكانت هذه طريقته في إخبارها ألا تأتي وتساعده هذه الليلة. شعرت بالاختناق في حلقها وغرزت أظافرها في راحتيها. كيف تستطيع في أي وقت أن تشعر بأي شيء غير الكراهية لهذا الشخص الذي يحتقرها دائماً لإرضاء غروره السادي!

٦ ـ القصة كاملة

في الأيام القليلة التي تلت ذلك لم تسنح الفرصة « جيليان » أن تبحث عن أية وسيلة للهرب. استيقظت بعد حلول الظلام بصداع وحرقة في حلقها وبرشح في أنفها وعندما أحضر لها « بول » الافطار أصرّ على أخذ حرارتها وعدم مغادرتها الفراش.

وعندما اعترضت على ذلك لئلا تكلفه أعباء إضافية، قال مؤنباً:

ـ هل تريدين أن تصابي بالتهاب رئوي؟ أظن أنك أصبت بها منذ ليلة وصولك وأنت منهكة تماماً. ابقي حيث أنت وسأحضر لك زجاجات ماء ساخن، فإنك لا تستطيعين النزول وأنت تعلمين ذلك.

وكانت تعلم ذلك فعلاً لأنها كانت تشعر بتعب شديد ولذ لراسها أن تترك نفسها في عناية « بول » وهي متأكدة أن ذلك لن يضايقه، ولم ترد أن تفكر فيما قد يكون رد فعل « مونسيه لابول ». كما أنها لم تفكر فيه طوال اليوم وهي مستلقية في الفراش تعاني من الصداع.

وفي الصباح التالي شعرت ببعض التحسن ولكن ليس لدرجة تسمح لها بترك الفراش. وأحضر « بول » لها كل وجباتها في غرفتها بدون إشعارها بأي حرج. كما أحضر لها بعض الكتب، وأمضت « جيليان » يومها في القراءة والنوم ومحاولة التسرية فراغها.

وفي مرة أو مرتين، سمعت وقع أقدام على السلم، فتوترت متوقعة أن يأتي « مونسيه لابول » ليسأل عنها لكنه لم يفعل، ولم يأت أحد إلى غرفتها سوى « بول ». وفي اليوم الثالث كانت قد شفيت تماماً وعندما أحضر لها « بول » إفطارها وأكد أنها يجب أن تبقى في السرير، رفضت ضاحكة وهي ترجوه أن يسمح لها بالنزول.

ـ لقد تحسنت كثيراً ـ حقاً ـ وأريد أن أشكرك على عنايتك بي وإحضارك الأدوية وزجاجات الماء الساخن. أنا لا أعرف كيف أشكرك.

هز « بول » رأسه قائلاً:

ـ كنت سعيداً بذلك يا آنسة.

ـ جيليان.

فضحك وقال:

ـ حسناً ـ يا جيليان ـ أرى أنك تحسنت ولكني أقترح ألا تتركي فراشك حتى بعد الظهر. أعطي نفسك راحة أكبر، فإنك لم تبقي في الفراش إلا يومين.

فقالت وهي تنظر إلى الصينية:

ـ سأفكر في الأمر.. ما هذا؟ خبز محمص وشاي.. سأستمتع به.

وبعد انصراف « بول » تناولت « جيليان » إفطارها ثم ذهبت نحو النافذة وكان يوماً جميلاً ـ كانت هناك بعض الغيوم تلوح في الأفق لم يسقط الثلج منذ مرضها. وعادت إلى غرفتها ثم قررت أن تغتسل وتنظف أسنانها.

شعرت بوجودها في الغرفة ـ وهي الآن تحسنت وتريد أن تخرج وتتحرك.

ورفضت أن تفكر في « مونسيه لابول » إنه لم يحاول حتى أن يحضر ويسأل عنها ولم تستطع إلا أن تشعر بالضيق من ذلك.

وارتدت بنطلون جينز ضيقاً وقميصاً بيج وأخذت صينيتها ونزلت إلى الطابق الأرضي. ولم يكن « بول » في المطبخ فوضعت الصينية ونظرت حولها. تعجبت أن هذا المكان أصبح مألوفاً لديها وبدت فيها شعوراً بالارتباط لم تشعر به أبداً في المنزل حيث يعيش والدها مع « إزابيل ».

وأزاحت شعرها وراء أذنيها، ونظرت من نافذة المطبخ وهي تتساءل أين يمكن أن يكون « بول ». هل ذهب إلى المتاجر مرة ثانية أم أنه في الخارج يطعم الحيوانات. كان باب المخزن مفتوحاً على مصراعيه، وصدر صوت من داخله جعلها تستدير باستغراب.

«بولت! بولت... هل هذا أنت؟»

نهضت إلى باب المخزن ونظرت فلاحظت أن هناك باباً آخر في نهاية المخزن من الناحية الأخرى، وأنه مفتوح أيضاً. فقطبت جبينها ثم سارت ببطء حتى الباب الآخر ونظرت منه فرأت سلالم تنزل إلى أسفل.

وشعرت بقشعريرة من الإثارة. إنه كالقصة التي كانت تقرأها أمس ـ باب سري يؤدي إلى سلالم ضيقة وبعدها... بدأت تنزل السلالم. إنها متأكدة أن بولت موجود تحت وفي الأغلب أن هذه السلالم تؤدي إلى مخازن البيت حيث يحتفظون بالمؤن.

وفي نهاية السلم بدا أن ما ظنته كان صحيحاً. كانت تقف في ممر مضاء بمصباح واحد معلق. ولكن بولت لم يكن موجوداً وكان هناك باب آخر مفتوح. شعرت بأنها تتطفل وهي تسير نحو الباب الداخلي وتفتحه ببطء. كتمت شهقة كادت تفلت منها عندما رأت ما وراءه. لم يكن هذا قبواً عادياً وإنما قاعة رياضية مجهزة بأحسن الأجهزة وأحصنة خشبية للقفز وقضبان حائط وحلقات معلقة في السقف وحبال وكيس ملاكمة وآلات التمرينات. وسارت إلى منتصف القاعة تنظر حولها بدهشة. فهمت لماذا لا يوجد أي تضخم أو زيادة في الوزن لدى دومينيك رغم عدم الحركة المفروض عليه.

وفي نهاية القاعة كان هناك باب يفتح على غرفة الملابس مغلفة بالخشب وملحق بها حمام. الغرفة هنا ساخنة والجو رطب ووجدت هيلين نفسها تتصبب عرقاً. كانت السخونة تأتي من خلف باب آخر وبدون تفكير أدارت المقبض ونظرت إلى الداخل.

ملأها شعور بالإثارة الشديدة. كانت الغرفة الداخلية عبارة عن حمام سونا مضاءة بنور برتقالي ضعيف، وجوها شديد الحرارة. وكان يتوسطها مصطبة ينام عليها رجل على وجهه. وفي اللحظة نفسها التي أدركت أنه دومينيك الذي قال بعصبية:

«بحق السماء يا بولت. أسرع إن لدي عملاً أريد إنجازه»

وجمدت هيلين. أدهشها أنه سمع الباب ينفتح وافترض أن بولت هو

الذي دخل. فإذا استدار الآن ورآها فماذا ستفعل؟ اشتعل خداها لم تر رجلاً عارياً من قبل.

وبينما هي مترددة تفكر في إغلاق الباب والهرب، تكلم مرة أخرى. قال وهو يشير إلى نقطة في ظهره:

«هنا يؤلمني»

شعرت هيلين بمعدتها تنقبض بعصبية. إذا لم تتحرك بسرعة سيستدير ويراها. يجب أن تذهب الآن بينما الفرصة مواتية ولا تجازف باكتشافها هنا. ولكن شيئاً أقوى من رغبتها في الهرب كان يدفعها للبقاء. كانت تعلم أنها تتصرف بغباء، وأن هذا الموقف سيعرضها لمزيد من الإذلال. لكنها أغلقت الباب ودخلت الغرفة. خيل إليها أن بولت مدلك، وهي تعرف من التدليك ما فيه الكفاية لتحل محله.

كانت يداها ترتعشان، ومدتهما ووضعتهما على ظهره، وبدأت تدلك العضلات التي تشد العمود الفقري. وبينما هي تعمل، انتفض جسمه لحظة وظنت أنه سيستدير ويواجهها. ولكنه استرخى مرة أخرى. فاستعادت ثقتها بنفسها وأخذت تدلكه بقوة أكبر وتنشط الدورة الدموية. كانت الحرارة في الغرفة تجعل جسمه رطباً ولأنها كانت مرتدية كامل ملابسها شعرت بالحرارة الشديدة. أسرع تنفسها وبدأت ذراعاها تؤلمانها وشعرت بأنها لن تستطيع أن تكمل. وفي هذه اللحظة استدار على ظهره وسحب منشفة غطى بها نفسه.

فتحت هيلين فمها في انزعاج ولكن عينيه كانتا تعبران فقط عن إعجابه. قال بلا أثر للحرج:

«أنت ماهرة»

ولكن هيلين كانت خجلة لأنها استسلمت بعصبية لتدليكه وقالت:

«كيف علمت أنه أنا؟»

ابتسم دومينيك ابتسامة كسولة أظهرت أسنانه البيضاء المنتظمة:

«لأن يدي بولت أثقل كثيراً كما أن عطرك فضحك»

نظرت هيلين إلى يديها المبللتين وقالت بأسف:

ـ لأني أريدك.

ضحكت عينا «دومينيك» وظل يحدق وهو يجلس على المصطبة بحركة واحدة مرنة.

ـ ما تقولينه مثير جداً.

ـ هل هو كذلك؟

كانت سعيدة أن الضوء البرتقالي يخفي احمرار وجهها.

ـ أنت تعلمين ذلك.

كان العرق يتصبب من ذراعيه وصدره وبدت شعره أشقر بفعل الرطوبة ولكن «هيلين» لم تغضب ونظر إليها ولم تكن في نظرته تلك السخرية التي اعتادتها بل بالعكس كانت فيها رقة مطلقة. شعرت بحلقها يجف. مد يده وجذبها نحوه. لم تتحرك رغم ذلك ووقفت متسمرة في مكانها. قال بصوت مبحوح:

ـ تعالي يا «هيلين».

سحبها نحوه وأخذ يقبل وجهها. وقفت في هذا الوضع التعس وركبتيها ترتجفان وهي تنتظر ذلك الشعور بالنفور الذي كانت تشعر به كلما لمسها «مارك». لكن هذا الشعور لم يأت بل بالعكس. أخيراً دفعها بعيداً عنه وقام وسار ببطء وهو يعرج ويضع ثقله على ساقه السليمة قائلاً:

ـ هذا جنون.

راقبته «هيلين» بعجز ثم تمتمت:

ـ دومينيك... دومينيك ماذا بك؟

ونظر إليها بنفاد صبر من خلف الضوء ثم قال بعنف:

ـ بحق السماء يا «هيلين»... لا يمكن أن تكوني بهذه السذاجة! إنك تعلمين ماذا بي. هل لديك فكرة عما تفعلينه بي؟

أجابت:

ـ أعلم ما تفعله أنت بي.

استدار ونظر إليها بحنين ثم قال بعنف:

ـ ما كان يجب أن تنزلي إلى هنا. ما كان يجب أن أتركك...

توقف فجأة ثم قال:

ـ وأظن أنه من المستحسن أن تذهبي.

حدقت فيه «هيلين» غير مصدقة. لم تستطع أن تقبل صرفه لها بهذه الطريقة القاطعة. كانت تشعر بعاطفة لا تستطيع فهمها تماماً. ولكنها تعرف أن «دومينيك» هو مثيرها.

بدأت تقول:

ـ دومينيك... أرجوك لا تغضب.

ـ أغضب! أغضب! كيف تتوقعين أن أغضب؟

ونظر إلى تلك الضباب ومرت بوجهه نزوة من الألم.

ـ «هيلين» اخرجي من هنا الآن قبل أن أغير رأيي.

ولم تتحرك «هيلين». انفتح الباب ودخل «بول» إلى الغرفة كما دخل ذلك المساء منذ ثلاثة أيام ولكن ما فعله هذه المرة كان أكثر حدة. صاح:

ـ «هيلين»... إنك مبتلة تماماً.

جاء إلى جانبها ووضع يده على جبهتها.

ـ إنك ساخنة جداً. ماذا بحق السماء كنت تفعلين؟

تحركت نظراته إلى «دومينيك» فتغير تعبير وجهه.

ـ هل تريدين أن تمرضي مرة أخرى؟

أشاحت «هيلين» بنظراتها بعيداً عن عيني «دومينيك»:

ـ أنا بخير... يا «بول». حقاً أنا ساخنة لأن الغرفة هنا ساخنة. هذا كل ما في الأمر وأنا مبتلة لأني عرقانة.

قال بخشونة:

ـ أقترح أن تدخلي الحمام وتستعملي الدوش. وإذا أخبرتني أين ملابسك سأحضر لك غيرها.

ـ ليس هذا ضرورياً حقاً.

أجاب «بول» وهو يضع زجاجة الزيت التي كان يمسكها:

ـ بالعكس ـ أظن أنه ضروري جداً. أظن أنك لن تتخلصين من الأخطار بقع

فقالت أخيراً ـ أليس كذلك يا سيدي؟»

هز "دومينيك" رأسه واستدار بعيداً. أخذ "بولت" ذراع "هيلين" وقادها بإصرار خارج "السويت" إلى غرفة الملابس، وقال وهو يشير إلى الدوش ويغلق "السويت" بحزم يعكس مشاعره الحقيقية:

«هذا هو الدوش ـ والآن أين ملابسك؟»

احمرت "هيلين" خجلاً ولكنها رأت أنه لا مفر من الموافقة.

«ستجد ملابسي الداخلية في الدرج وبنطلوني الجينز والفانلة التي كنت ألبسها منذ عدة أيام معلقتين في الخزانة.»

سُرّ "بولت" ورد قائلاً:

«حسناً والآن خذي الدوش وسأحضر لك ملابسك قبل أن تنتهي.»

كان الدوش الساخن منعشاً ولكن أفكارها كانت ما زالت مع "دومينيك لايول". عاشت مرة أخرى الدقائق الأخيرة بكل تفصيلاتها وهي تشعر بالإثارة.

أغمضت عينيها وشعرت مرة أخرى باحتياجها إليه، وتساءلت كيف استطاعت أن تتصور أنها بلا عاطفة؟ إن أحداً من قبله لم يثرها بهذه الطريقة لكنه استطاع أن يفعل ويتركها وهي أشد اشتياقاً له من أي قبل.

واشتعل خداها احمراراً. كيف تعيش الحب مع رجل تجهله؟ لابد أنها مجنونة كما قال.

تماسكت نفسها وعاد جسمها يهدأ ـ لقد سمحت له أن يوقعها في شباكه وهي غير منتبهة. ولكن هل هذا صحيح؟ ألم تكن تعرفه تماماً أنه شبيهها أم استطرد في لمسة يديه لها!

كان هناك طرق على الباب، فقالت وهي ترتجف:

«من هناك؟»

«أنا "بولت". ملابسك خارج الباب وسأذهب لأعطي السيد "لايول" علاجه. هل يمكنك أن تتصرفي بمفردك؟»

أجابت بالإيجاب وعندما خرجت من قاعة الرياضة لتغسل ملابسها شعرت بالانتعاش. وتساءلت ماذا يمكن أن تفعل بملابسها القذرة فليس لديها مسحوق الغسيل، ولكن لابد أن "بولت" لديه ويمكن أن تقوم بغسلها بنفسها وقررت أن تتركها في المطبخ حتى وقت الغداء لكن عندما وصلت إلى الطابق الأرضي خطرت لها فكرة مفاجئة. "دومينيك" في غرفة النوم و"بولت" يعالجه الآن ـ وهذا يعني أن المكتب فارغ.

تركت ملابسها في ركن المطبخ وأسرعت إلى الصالة وقلبها يدق بعنف. ولحسن الحظ لم تر أحداً أيضاً رغم أنها فتحت باب المكتب بحذر شديد خوفاً منها. ولكن الغرفة كانت خالية كما ظنت. وأغلقت الباب وراءها بهدوء وأسرعت نحو النافذة حيث رأت التليفون في المرة الأولى. وسحبت الستارة جانباً. كان التليفون ما زال موجوداً ويدها ترتعش وهي تمدها إليه. لمن ستتصل؟ والدها في لندن. أم بالشرطة المحلية؟ لا ليس الشرطة. قررت ذلك بسرعة. إنها لا تريد أن تدخل الشرطة في الموضوع.

ووضعت السماعة على أذنها ثم رأت ما لم تكن قد رأته من قبل. كان السلك الذي يخرج من قاعدة التليفون يتدلى منفصلاً بعيداً عن الحائط. لا بد أنه قد تم قطعه.

فأعادت السماعة كأنها تحرق يدها ووقفت مشدوهة. شعرت بشعور هائل بالخيانة. في أي حال أخبرها "دومينيك" بعدم وجود تليفون لديه.

كانت سعيدة أن أحداً لم يرها وهي تتصرف بهذه الحماقة. وذهبت ببطء إلى غرفتها إذن انتهت قصة التليفون. وليس أمامها إلا سيارة الجيب وهي لا تعرف حتى مكانها.

ولم تستطع النزول مرة أخرى قبل الغداء. وكانت تقول لنفسها إن السبب أنها مرهقة ومكتئبة، ولكن الحقيقة أنها لم تكن تستطيع أن تواجه "دومينيك" مرة أخرى حالياً.

وعندما نزلت أخيراً وجدت "بولت" في المطبخ يحضر المائدة لاثنين ونظر إليها بفرح وهو يقول:

«ها قد أتيت. بدأت أظن أني سأتناول طعامي بمفردي. هل عدت إلى سريرك؟»

هزت «هيلين» رأسها قائلة:

«لا. كنت أستريح.

«هذه فكرة حسنة.

واستقر «بريت» في مقعده وأخذت «هيلين» تعبث بعصبية بالسكاكين الموضوعة على المنضدة.

«هل... هل السيد «لايل» يتناول غداءه؟»

قال «بريت» وهو يمضغ البطاطس:

«إنه سيتناول الغداء في مكتبه.

«آه...»

شعرت «هيلين» بخيبة أمل عندما علمت أنها لن تراه رغم كل شيء.

ونظر إليها «بريت» وقال:

«هيلين... هيلين، لا تورطي نفسك هنا... إني أقول لك ذلك لمصلحتك.

وركزت «هيلين» بصرها على المنضدة الخشبية وقالت:

«أنا لا أعرف ماذا تقصد.

«أنت تعلمين جيداً. أنا أعلم أنه ليس من شأني، ويمكنك أن تقولي لي ذلك، ولكني لست أعمى وأستطيع أن أعرف جيداً ماذا حدث هذا الصباح.

وبلعت «هيلين» غصة وهي تقول:

«هل تستطيع إذاً إخباري... هل حدث مثل هذا هنا من قبل؟»

قال بحذر:

«لا، لم يحدث مثل هذا من قبل، ولكني أعرف «دومينيك» جيداً الآن وآمل أن تكوني على قدر من الحكمة...

ثم توقف عن الكلام وهو يجد صعوبة في التعبير عما يريد قوله، وردت «هيلين» بصراحة:

«إنه لم يغرني إذا كان هذا ما تحاول أن تقوله.

واحمر وجه «بريت» قليلاً:

«أنا فقط لا أريد لك أن تتألمي.

«إذن لم تكرر هذا الكلام؟ كيف سأتألم؟»

«بالتورط مع السيد «لايل».»

«ألا يعني هذا الكلام عدم إخلاص السيد «لايل»؟»

تنهد «بريت» وجلس في الكرسي المقابل لها:

«هيلين، دعيني أخبرك بشيء لا يعرفه إلا القليل. «دومينيك» يحمل نفسه مسؤولية الحادث... الحادث الذي قتل فيه شقيقه.

تمتمت «هيلين» بأسى:

«لماذا؟»

فتردد «بريت» وقال:

«لا أستطيع أن أخبرك... إلى جانب أنها قصة طويلة.

«ولكنك يجب أن تخبرني... أرجوك يا «بريت». أريد أن أعرف.

وهز «بريت» رأسه بشدة:

«إن هذا لن يعجب السيد «لايل».»

«هل يجب أن يعلم؟»

«وماذا سيحدث عندما تتعبين من هذا؟ عندما تعودين إلى عائلتك، من أيضاً سيعلم الحقيقة؟»

«لا أحد. أقسم لك.

هز «بريت» رأسه:

«لا أستطيع أن أصدق ذلك.

ونظرت إليه «هيلين» قائلة:

«أنا لا أكذب.

«أنا لا أقول إنك تكذبين، ولكن قد تقولين شيئاً بدون قصد في وقت ما.

«أوه يا «بريت»!»

ونظر إلى وجهها المكتئب لحظات ثم قال بتجهم:

«فات الأوان، أليس كذلك؟ لقد تورطت فعلاً.

فقالت وأصابعها على فمها:

«لا أعلم».

ثم هزت كتفيها بحدة.

«أنا لا أريد ذلك، ولا أعرف عن الزوج الشرعي أنني يجب أن أكرهه لأنه يخالفني هذا رأيا مني، ولكني لا أكرهه عندما أفكر أني تركت «تشارلز» عرياناً من الزجاج».

قطب «بول» جبينه قائلاً:

«هل أنت متأكدة أنك لا تخلطين بين العطف وبين أمر؟»

ضحكت «هيلين» بلا مرح.

«لا أعلم.. فقط أعرف أنه عندما يقترب مني...»

وتوقفت فجأة ثم سألت:

«هل تركته في مستشفى؟»

«نعم، إن جزءاً من عظام الفخذ تحطم في الحادث وكان على الجراحين إزالة الأجزاء المتفتتة».

«آه.. فهمت».

«في ذلك الوقت وبعدما شفي من الإصابات الأولى كانوا يريدون إجراء جراحة أخرى ووضع عظمة صناعية مكان العظمة التي انحطمت. ولكن السيد «لايول» لم يسمح لهم بذلك».

«لماذا؟»

«لا أعلم.. حاول الجميع إقناعه ولكنه رفض.. كان يبدو وكأنه يريد أن يتذكر الحادث دائماً. وبالطبع فإن عظمه يؤلمه عندما يقف طويلاً كما يؤلمه عموده الفقري.. لذلك فالعكاز يساعده».

«أفهم».

واستطردت «هيلين» وهي تصغي باهتمام:

«أعرف بعض الشيء عن هذه الأمور. كانت والدتي تعاني من نوبات صداع عنيف وكانت تطلب مني أن أدلك جانبي رأسها وظهر عنقها».

ثم ترددت:

«أود أن تخبرني يا «بول» لماذا يلوم «دومينيك» نفسه بخصوص الحادث؟»

ظل «بول» واقفاً.

«إنه يعتقد أن أخاه حاول قتل نفسه لأنه اكتشف أن زوجته تحب «دومينيك»».

«لماذا؟»

«لقد اقتفى «فرانسيس» أثر والده والتحق بالجيش، وعندما كان في فرصة قابل «كريستينا» وتزوجها بدون أن يخبر أحداً ثم أحضر زوجته معه إلى البيت. كانت جذابة وبعد أن قابلت «دومينيك».. يحسن عدم ذكر هذا الجزء. يكفي أن نقول أنها أقنعت «فرانسيس» بترك الجيش ودخول سباق السيارات كشقيقه. لكن «فرانسيس» لم يكن يصلح لأن يكون سائقاً لم يكن هذا يهمها ولكنه كان مغرماً بها لدرجة أنه كان مستعداً أن يعمل أي شيء. واشترك في بعض السباقات ونجح نجاحاً متوسطاً لكن هذا لم يكفها وكان «دومينيك» يكسب في السباق وهي تحب الرابحين».

شعرت «هيلين» بنفسها تجفل.

«و.. ودومينيك؟»

ابتسم «بول» قليلاً.

«لا.. إن «دومينيك» لم يكن مهتماً بها إلى جانب أنها كانت زوجة أخيه. وهذا ما حدث بعد ذلك».

تنهد «بول» تنهيدة كبيرة.

«كانت الليلة قبل سباق «نوربورغرنغ» وكنا جميعاً قد ذهبنا إلى «ألمانيا» منذ بضعة أيام وأقمنا في فندق قرب حلبة السباق. وتلك الليلة تشاجر «فرانسيس» و«كريستينا» وكانا دائماً يتشاجران. كانت تريد أن يأخذها إلى النزهة بينما هو يريد أن يستريح لأن سباق السيارات رياضة شاقة جداً وتحتاج لياقة بدنية كاملة. لكنها خرجت بمفردها وتأخرت في الرجوع فذهب «دومينيك» و«فرانسيس» للبحث عنها فوجدها «دومينيك» في حانة وبالطبع كانت ثملة واضطر «دومينيك» أن يتشاجر مع اثنين من البحارة قبل أن يستطيع أن يأخذها.. ولكنها فسرت تصرفه تفسيراً خاطئاً وعندما عاد «فرانسيس» أخبرته أنها لا تحب زوجها هي تريد «دومينيك» وأن «دومينيك» يشعر الشعور نفسه نحوها ورغم أن

ـ دومينيك أنكر ذلك طبعاً لكن فرانسيس لم يصدقه.

ـ أوه يا برنت.

ـ شيء كريه ـ أليس كذلك.

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ ذلك الجزء الباقي ـ أزاح فرانسيس عن الطريق وفقد سيطرته على سيارته واصطدم به دومينيك ويوهان بارانس وقتل فرانسيس ويوهان وأصيب دومينيك إصابة خطيرة.

ـ وبعد ذلك ماذا حدث لكريستينا؟

ـ تعافت ـ كانت ما تزال تريد دومينيك ولكن هو لم يكن يريدها منذ البداية أما بعد الحادثة فلم يكن يطيق رؤيتها.

ـ لابد أنها كانت تعيسة.

ـ من الجائز بطريقتها الخاصة.

وبدا برنت يتطلع عبر النهر إلى المراعي.

ـ ولكن السيد لايول لم يكن لديه وقت للحسد منذ تلك الحادثة.

وهز رأسه.

ـ وكانت لتلك المأساة مضاعفات لم نكن نستطيع توقعها لقد أصيب الكولونيل لايول بالشلل عندما سمع بحادثة ولديه ولم يشف قط. وماتت زوجته بعد وقت قصير.

وتنهدت هيلين.

ـ هذا فظيع.

ونظر برنت إلى وجهها الشاحب.

ـ أنت الآن تستطيعين أن تدركي لماذا هذه القصة ليست للنشر.

ـ بالطبع.

شبكت هيلين يديها.

ـ ولكن دومينيك ليس مسؤولاً عن الحادثة. أليس كذلك؟

ـ بالطبع لا ـ كان الطريق مبللاً ولم تكن سيارة فرانسيس الوحيدة التي

تورطت. ولكن عندما يحدث مثل ما حدث وتكون علاقتك بالشخص المصاب ليست على مايرام فمن الطبيعي أن يلوم المرء نفسه إذا ما حدث مكروه. كان السيد لايول قريباً جداً من الواقعة بحيث لا يستطيع أن يرى الموضوع من بعيد ـ إلى جانب ما حدث بعد ذلك. أظن أنه كان يريد أن يبتعد عن الجميع.

ـ والآن؟

ـ لديه عمله الذي يشغله ـ لقد ألف كتاباً قبل ذلك عن والده. وقد انعزل إلى فيلته.

قالت هيلين وقد أثار ذلك اهتمامها

ـ لم يخبرني بذلك. وهل كان قيماً ناجحاً؟

ـ جداً وقد در مالاً كثيراً. لكنه لم يغير موقف السيد لايول.

ـ هل تظن أن أي شيء قد يغير موقفه؟

ـ أشك في ذلك. لهذا شعرت أنه يجب أن تعرفيه.

ونظرت هيلين إلى يديها.

ـ أنا لست طفلة.

ـ أعلم ذلك ولكن لا تبني أحلامك على الرمال المتحركة. لا تتوقعي شيئاً حتى لا تخيب آمالك.

ـ هذا كلام متشائم جداً.

ـ إن السيد لايول إنسان متشائم يا هيلين. وكما قلت فأنا لا أريدك أن تتألمي.

٧ ـ الهرب

في عصر ذلك اليوم بدأ الثلج يتساقط مرة أخرى، واستدارت عن النافذة وأخذت تعاين الطبق الفارغ. خرج «بولت» ليهتم بالحيوانات وأصر أن تبقى في الداخل. لم تعترض لأنها كانت تشعر بالإرهاق وعدم النشاط. كانت تحاول أن تقنع نفسها أن هذا الشعور سببه الأيام التي قضتها في الفراش لكنها كانت تعلم أن هذا غير صحيح. ورغم ما قاله «بولت» فإن تفكيرها ظل يدور حول ما حدث في غرفة السيدة.

وكان تفكيرها غير منتظم وهي تذرع الغرفة بقلق. إنها المسؤولة عما حدث. بدأت هي بلمسه وتدليكه. ولكنه كان اندفاعاً لم تستطع مقاومته وما حدث مازال يثيرها ويجعلها تشعر بالسعادة.

وصعدت إلى غرفتها وألقت بنفسها على الفراش وهي تنظر إلى ندف الثلج يتساقط خلف النافذة. بدأت تفهم أنه كلما طال بقاؤها هنا كلما أصبح من الصعب عليها أن ترحل. وما بدأ كحبس إجباري تحول إلى أمر لذيذ ولكنه أكثر خطورة. ووصلت إلى الحد الذي تشعر فيه أنها لا تريد أن ترحل. وجعلتها هذه الفكرة تهب جالسة في فراشها وهي تلف ذراعيها على ركبتيها وقد قطبت وجهها بقلق. ماذا ستفعل؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟ وماذا تريد أن تفعل؟

بقيت في غرفتها حتى المساء. ثم أخذت حماماً وارتدت ثوباً طويلاً من الجرسيه الكريب الأسود الذي يظهر بياض جلدها وتركت شعرها ينسدل على كتفيها. وعندما نظرت إلى نفسها في المرآة تأكدت أنها تبدو في أحسن صورة.

ولكن عندما دخلت غرفة الجلوس بعد بضع دقائق وجدتها خالية فأقنعت نفسها على أن تركها مع «بولت» على حدة هي طريقته ليعرفها أن ما حدث بينهما لن يتكرر. ووقفت في وسط الغرفة تعض على شفتيها عندما انفتح الباب. ولكن القادم لم يكن «بولت» كما توقعت بل «دومينيك لابول».

كان يرتدي هذا المساء قميصاً حريرياً كحلياً وبنطلوناً أزرق. ونظر بوقاحة إلى ملامح «جيليان» المتألقة فلم تستطع أن ترد نظرته. وعندما التفت نظره إلى أسفل أرخت عينيها باضطراب.

ثم غير اتجاهه ودخل الغرفة وهو يعرج. وأغلق الباب وراءه. مرّ بجانبها فلمس طرف ثوبها بلمسة ثم ذهب ووقف مديراً ظهره إلى المدفأة.

«بحق السماء لا تنظري إليّ هكذا كأنك تخافين مني».

قالت «جيليان» رغماً عنها:

«أنا لا...»

ثم تنهدت وأضافت:

«كيف حالك هذا المساء؟»

وضاقت عينا «دومينيك»:

«أتقصدين بعد تدليكك الليلي؟»

اشتعل خداها:

«لا تضايقني».

«حسناً! إذن ماذا أفعل بك؟»

«تستطيع أن تسأل عني».

ولوى شفتيه:

«هل هذا ضروري وأنت تبدين في أحسن حال؟»

«لم تحاول أن تأتي وتسأل عني وأنا مريضة».

«هل كنت تريدين ذلك؟»

فأحنت «جيليان» رأسها:

«فالتصرف المهذب يقتضي ذلك».

«ولكنك لا تتوقعين التصرف المهذب مني؟ أليس كذلك؟ كما أكدتِ أنت

تدريبي تدريباً قاسياً وتدريباً عقلياً وجسدياً.

ونظرت إليه هيلين وهي ترتعش.

«هذا كان في البداية قبل أن أعرفك.

«وقال: لا تعرفينني يا آنسة جيمس»

نظرت إليه باستعطاف.

«أرجوك – ألا تستطيع أن تتصرف بلطف.

«إذا كنت تتضايقين أن تتكلمي عن مواضيع غير شخصية لهذا الشكل – فلم تريدين أن تكلميني»

ضحكت هيلين لفشلها في إحباط

«قالت لي: افهمي من عنده.

«بالعكس يا آنسة جيمس. أفهمك جيداً»

وبينما انتظرت أن يحول بولت في هذه اللحظة وهو يحمل الطعام الرائحة الشهية كان من حسن الحظ كانت هيلين تنتظر أن يحضر دومينيك الطعام ليجلس إليها في الصالة كما فعل من قبل ولكنه لم يفعل لأنه أصر وضعها بولت على السرير.

وحاول دومينيك أثناء تناولها الطعام أن يلهيها عما طلبته بالحديث في مواضيع مختلفة تكلم عن كتب قرأها وأماكن زارها كما شجعها على الكلام عن حياتها مع والدها وزوجة أبيها وجدت نفسها تخبره بما أخبرت به بولت وتحدثت إلى الشخص الغريب والبعيد وقد بدأت تفهم من خلال كلامه الشعور بالوحدة التي تشعر به والدها منذ وفاة والدتها والذي دفعه الرغبة في النجاح كنوع من التعويض عن خسارته. وعرفت تهمه الفشل، الشيء الوحيد الذي لم تتقبله منه موازناتها بشكل كامل. ولكن هذا لم يكن موضوع مناقشة.

شجعتها رقته فقالت:

«أظن أن كل شخص يحتاج لرأي موضوعي كي يفهم مشكلته الخاصة. أقصد في حالتك مثلاً. كنت مجبراً لدرجة أنك لم تستطع أن تنظر إلى حادث شقيقك نظرة واضحة»

على الفور جمدت عينا دومينيك.

«من أخبرك عن حادث شقيقي؟ أوه – لا تتعبي نفسك بالرد – أنا أعلم – إنه بولت. كان يجب أن أعلم أنه لن يستطيع أن يبقى فمه مغلقاً»

شعرت هيلين بإحساس مريع.

«أرجوك – لا تلم بولت. أنا المسؤولة لا سألته فأجابني – هذا كل ما في الأمر»

«ليس له الحق في مناقشة أموري مع أحد»

«لم تناقش أمورك. أخبرني فقط بالوقائع»

وقام دومينيك واقفاً وقد أجفل من الألم الذي سببته له الحركة المفاجئة وقف لحظة وهو ينظر إلى رأسها المنحني ثم سار يعرج بعيداً عبر الغرفة وكل مواقفه يعبر عن الغضب المكبوت. ونظرت إليه هيلين ثم قامت من كرسيها وركعت على الأريكة وهي تنظر إلى ظهره العريض وتحاول أن تقنعه من مرارته التي لا داعي لها.

«دومينيك»

استدار ونظر إليها ببرود.

«بدافع الشفقة. هكذا يبدو ما لدي في. ولكنها مستطرداً هنا عند وقته – ولكنا لا تتحدث»

وقف وهو يستند بثقل على ساقه غير المصابة.

«ماذا عن تعتقدين أنني أريد الكلام عن الحادث معك؟»

رفضت هيلين أن تتركه يخيفها

«لا بد أن أساعدك»

«مطلقاً»

عاد يعرج إلى الأريكة.

«بأي شكل يمكنك أن تساعديني؟»

وشعرت هيلين بالاحتقار لنفسها لأنه استطاع أن يثير فيها الشعور القهر رغماً عنها

«بمساعدتك على رؤية الحقائق كما هي. بأن أرى لك أن الناس ليسوا بدون شعور

www.liilas.com

كما تظن. يجب أن تتعلم أن تعيش مع الناس مرة أخرى».

«ربما رأيته إذا قلت لك إني أفضل حياتي كما هي الآن؟ وليست لدي الرغبة في العيش كما تتكلمين».

وشعرت هيلين بالغربة لكنها قالت:

«كيف يمكنك أن تعرف ذلك؟ إنك لم تحاول... أظن أنك خائف».

فالتفت حول الأريكة بحركة واحدة سريعة وأمسك شعرها بيده وهو يلفه حول أصابعه حتى اهتز رأسها بشدة وآلمها وسألها بقسوة:

«ما الذي تعرفينه عن هذا الموضوع؟ إنك تتكلمين عن الموضوعية وعن الفهم... ما الذي تعرفينه عن هذه الأشياء؟ ما الذي تعرفينه عن الرقاد شهوراً في سرير مستشفى وأنت أقرب إلى الموت من الحياة تتمنين لو كنت أنت الضحية... هل تستطيعين أن تكوني موضوعية حينئذ؟ هل تستطيعين أن تفهمي تلك القوة التي تدمر إنساناً وتترك الآخر مشوهاً مدى الحياة؟»

فقالت باحتجاج وهي ترفع يدها إلى رأسها الذي يؤلمها:

«لماذا رفضت إجراء العملية الجراحية؟»

«كنت أفضل أن أتذكر الحادث. إلى جانب أني لا أريد أي تركيبة غريبة في جسمي. مظهري قد يكون مشوهاً ولكنه مظهري وليس صورة محسنة منه».

«دومينيك. إنك تؤلمني».

«حسناً! إذن كوني موضوعية».

قال ذلك وهو يصدر صوتاً منكراً ساخراً.

واتسعت عينا هيلين بألم وعدم تصديق وقالت بصوت مجروح:

«إنك لا تعني ذلك».

فاسودّ وجهه وصدرت عنه آهة تعبر عن أزمة نفسه ثم جثا بجانبها على الأريكة وأخذ يدها بين يديه ورفع راحتيها إلى شفتيه... ثم قال بصعوبة:

«أرجوك لا تنظري إليّ هكذا... لا أريد أن أؤذيك ولكنه رغماً عني».

نظرت هيلين إلى رأسه المنحني وضغط فمه على راحتيها بلوعة. ارتعشت. نظر إليها وعيناه تعبران عن عواطفه. ووضع يده خلف عنقها ثم شد جسمها

إليه.

لم تستطع هيلين أن تتحرك وحتى لو أرادت ذلك... كان تأثيره عليها قوياً لدرجة أنها كان يمكن أن تستسلم. واقتربت منه أكثر وضمها إليه.

«أوه يا هيلين. أنت لا تعلمين ماذا تفعلين بي».

أصبحت لا تهتم بشيء. وطوقت ذراعيها حوله. شعرت بأطرافها تتخدر وتمنت لو استطاعت أن تقضي الليل كله هنا في هذه الغرفة الدافئة المضاءة... همست تحت فمه:

«إني أحبك يا دومينيك».

انقلب جسمه على الفور وابتعد عنها وهو ينظر إلى السقف وقد تجهمت ملامحه.

وقالت مرة أخرى وهي تعتدل مستندة على مرفقها:

«دومينيك! ماذا حدث؟ قلت إني أحبك... أنا فعلاً أحبك».

ردّ بعنف وهو يقوم عن الأريكة:

«لا تقولي هذه الأشياء لي. إنك لا تعرفين ما تتكلمين».

«أعرف... ما الأمر؟ ماذا حدث؟»

نظر إليها ببرود وهو يصلح ملابسه ثم قال بصراحة:

«أنا لا أحبك. بالنسبة إليّ الحب لا يدخل في هذا».

لم تستطع هيلين أن تكتم الشهقة التي أفلتت منها:

«ولكن... ولكن الآن...»

قال بقسوة:

«كنت أريد أن . . .   ظننت أنك كنت تريدين الشيء نفسه.

فعلاً...»

«إني أتساءل؟ هل كنت مستعدة أن تنسي كل شيء عن الموضوع بمجرد انتهائه. تنسي كل شيء عن الموضوع؟»

قالت هيلين وهي تعتدل وتضم فتحة ثوبها:

«دومينيك... أنا لا أصدق أنك لا تحبني».

نظر إليها بوجوم للحظة ثم خرج نحو كرسيه وجلس عليه ومدّ يده وسحب زجاجة الشراب.

وتساءل لماذا لا تستطيع النساء أن تفهم أن الرجال يمكن إثارتهم بدون أن يكون لديهم أكثر من الرغبة البحتة.

فظهر تعبير "هيلين" بالغثيان من تصرفاته على وجهها ثم قالت:

ـ أظن أن كلامك هذا مقزز.

ـ هذا لو صدر من الشخص منحرف ومشوه عقلياً.

ـ أوه يا "دومينيك".

ـ اسكتي.

ثم بلعه وهو يرفع الكأس الأخرى إلى شفتيه.

ـ لا أريد أن أتكلم ثانية عن هذا الموضوع، ولا أريد أن أتكلم معك ثانية إنك تجعلني أشعر بالتقزز.

وكتمت "هيلين" بكاءها.

ـ لكني! لكني أريد هذا الكلام أنا أعرف أنك لا تعنيه. أنا لا أصدقك.

ـ لم لا؟ هل فكرتك عن نفسك عالية إلى هذه الدرجة؟ أؤكد لك أن ما حدث بيننا الآن وقع بيني وبين أخريات من قبل، بل وباستمتاع أكثر.

كان هذا أكثر مما تستطيع سماعه فوقفت تاركة المنشفة على كرسيها بعد استعادتها وقالت وهي تنظر إليه بعينين مشتعلتين:

ـ أظن أنك كريه.. كريه! لا أعرف كيف ظننت أنك رجل محترم! وكيف تركتك تلمسني. إنك حقير، حقير. أنا أحتقرك بشدة.

ـ حسناً.

قال وهو يسترخي في كرسيه بلا اهتمام.

ـ هذه هي الطريقة التي أحبها. والآن بما أن هذا منزلي أرجو أن تخرجي من الغرفة لأني أنوي أن أشرب حتى الثمالة.

وخرجت "هيلين" أيضاً وهي تصعد إلى غرفتها. كانت تتمنى أن يظهر "بول" ويسألها إذا كان كل شيء على ما يرام، لأنه لو حدث هذا لانهارت تماماً أمامه.

لكنه لم يظهر ووصلت بسلام ورمت جسمها المرتجف على السرير وأخذت تبكي بحرقة استمرت بضع دقائق وعندما انتهت العاصفة ظلت راقدة تشعر أن كل قوتها خارت.

قامت وخلعت ثوبها الأسود بغيظ وهي تشعر أنها لا تريد أن تراه ثانية وألقته تحت الخزانة ثم وقفت بملابسها الداخلية تتساءل: «كيف ستقضي يوماً آخر في منزل "دومينيك" الآن؟»

لم تكن هناك فائدة من أن تذكر لنفسها ما قالته له من أنه كريه وحقير وتقنع نفسها بأن تكرهه. لأنها تعلم أن هذا غير صحيح وأنها تحبه. نعم إنها تحبه حقاً وهذه الحقيقة أقسى على نفسها من الغضب والإحباط التي شعرت به الأيام الأولى.

إذن كان "بول" محقاً فيما قال وعليها أن تنصرف الآن. بالطبع لم تكن تستطيع أن تلجأ إلى "بول" ليساعدها ولكن كان مازال هناك إمكانية استخدام سيارة الجيب. وكلما فكرت في الأمر كلما تأكد لها أنها يجب أن تهرب من هنا قبل أن تحدث كارثة أكبر.

تنهدت وسألت نفسها هل يمكن أن يحدث أكثر مما حدث؟ ووجدت على نفسها أن البقاء هنا مع "دومينيك لابول" يجر عليها ثأراً غريباً وتخشى أن يأتي اليوم الذي لا تستطيع فيه أن تمنع نفسها من الانزلاق إلى تلك العلاقة المحرمة. إنها تعلم أن هذا يمكن أن يحدث، ورغم ما قاله فهي تعلم أنه يجدها جذابة ولكن دوافعه ليست نظيفة كدوافعها.

وهزت رأسها ثم أخرجت بنطلونها الجينز وبلوزة وارتدتها، وأخذت تفكر في موقفها. الساعة الآن الثالثة وسيذهب "بول" بعد قليل لينام، وإذا ظل "دومينيك" ما قاله ويشرب حتى الثمالة فلن تكون هناك مشكلة معه. إذن لم يبق إلا "تسبا" قال "بول" إنها تنام في المطبخ، هذا يعني أنها يجب أن تخرج من الباب الأمامي. ولكن لسوء الحظ الباب الأمامي قريب جداً من باب غرفة الجلوس ولكن هذا أمر لا مفر منه. وفكرت بقلق إن عليها التصرف الآن وإلا فلن تكون أمامها فرصة أخرى.

وعندما أصبحت الساعة الثانية عشرة والنصف كان المنزل هادئاً كالقبر. ونظرت من خلال النافذة فوجدت الثلج مازال يتساقط ولكن هذا لا يهم! ولكن مع كل هذا الثلج فإن آثارها ستبقى واضحة. ونزلت بهدوء ثم أحضرت معطفها من غرفة الملابس بالصالة. إنها لن تأخذ سوى حقيبة يدها. أما باقي ثيابها فلا تهمها.

كان هناك مزلاج على الباب الأمامي، غير القفل العادي. ولحسن الحظ أن بياض الثلج الناصع كان يضيء الغرفة. فسحبت المزلاج بسهولة ثم أدارت القفل فانفتح الباب ونظرت حولها. هواء الليل بارد لكن ليس لدرجة التجمد. وتساقط الثلج بخفة على وجهها فشدت نفسها بتصميم وسارت حول المبنى. ولكن كان عليها أن تكتشف الكاراج.

كان الأمر أسهل مما تصورت. كانت آثار عجلات السيارة ما تزال واضحة فتبعتها بخفة إلى مبنى كالقرن خلف حظيرة الأبقار. لم يكن الباب المزدوج مغلقاً بالقفل فقط بل مقفلاً أيضاً بمزلاج خشبي وكادت تسقطه وهي ترفعه من مكانه. عندما التفت بجانبها جسم أسود أملس فارتعدت. ولكنه لم يكن إلا إحدى القطط البرية التي تعيش في المباني الملحقة بالمنزل.

جعلها هذا الحادث الصغير عصبية. وعندما ارتفع صرير الباب الذي فتحته أجفلت. نظرت في الداخل وهي تركز عينيها لتعتاد الظلام. وشهقت عندما رأت أن العربة لم تكن سيارة جيب كما توقعت بل سيارتها الميني الصغيرة. التي كانت تتركها مطمورة في الثلج. لكنها الآن تذكرت أن دومينيك قد طلب من بول أن يحضرها ومن الواضح أنه نجح. فتنهدت وتمنت لو معها المفاتيح ولو أنها استطاعت أن تديرها.

ثم أغلقت الباب بلا فائدة. في أي حال لا بد أن السيارة لا تعمل، ولو حاولت إدارتها فستصدر ضجيجاً عالياً بلا فائدة.

ونظرت حولها في الفناء. كانت هناك آثار عجلات كثيرة. أخذت تتفحصها فوجدتها كلها تتقاطع. ولكن لم يكن هناك سوى مبنى واحد يتسع لسيارة جيب. اقتربت منه بحرص. وكانت محظوظة هذه المرة. فالجيب موجودة بداخله. ومن

العجيب أن المفاتيح في مكانها لم تستطع أن تصدق هذا.

كانت يداها ترتعشان وهي تركب السيارة وتغلق بابها بهدوء. أدوات القيادة فيها لا تختلف عن السيارات الأخرى. فقوست ظهرها استعداداً للصوت الذي ستحدثه عند تشغيلها. وضغطت على بدال البنزين. ودبت فيها الحياة فارتفع صوت محركها. من الآن ستكون قد أفلتت.

بعد لحظات تحركت السيارة خارجة من الكاراج واستدارت إلى الممر حول المنزل. وتذكرت في الوقت المناسب أن تضيء الكشافات قبل أن تصطدم بشيء. ثم سارت عبر الفناء المرصوف بالحصى أمام الواجهة الأمامية. ما الذي قاله بول عن أن قيادة هذه السيارة صعبة؟ الثلج المتراكم لا يمثل أية مشكلة بالنسبة إليها لو كانت تقود سيارتها لكانت توقفت الآن. ولكن الجيب تسير بسهولة. كانت تتبع الآثار التي لا بد أنها آثار بول عند ذهابه لمكتب البريد وكانت منشغلة بما يكفي لإسكات الشعور بالخيانة الذي بدأت تحسه. لن تفكر في الصدمة التي سيصاب بها دومينيك لابد. عندما يكتشف أنها غابت أو لوم بقية أهل بول. لأنها بعد كل ما حدث لم تكن جديرة بالثقة. إنها تهرب بعيداً كل ما ستفكر فيه. هذا المستحيل. كان أمامها مرتفع من الثلوج، وبطريقة آلية ضغطت على البنزين فقفزت السيارة إلى الأمام متخطية الثلج. وزادت سرعتها وهي تنحدر بعد ذلك. شعرت جيان بالارتياح. رفعت قدمها على الفور عن البنزين. فقد كانت تسير بسرعة كبيرة ويجب أن تخفف حتى تستطيع أن تلف المنعطف التالي. ضغطت قليلاً على الكوابح رغم أنها تعلم أن هذا تصرف خطر فانحرفت السيارة وهي تلف في نصف دائرة. ولكن جيان حاولت السيطرة على أعصابها، واستمرت في القيادة على الطريق الزلق. لكن الطريق كان ضيقاً بفعل تراكم الثلج على الجانبين حتى أن مؤخرة السيارة اصطدمت بكتلة من الثلج وانزلقت مرة أخرى إلى الطريق. وضغطت على أسنانها في محاولتها للتركيز وعدم الاضطراب، وحاولت السير في منتصف الطريق مرة أخرى. ولكن دولاب السيارة انحرف جانباً واصطدمت بجسم الجليد على الجانب الآخر من الطريق

كانت تجربة مخيفة، خاصة أن السيارة تسير بسرعة كبيرة في الممر الضيق، وتنطلق في هذا الجانب ثم في الجانب الآخر ورأت المنعطف أمامها، وحاولت أن تدير عجلة القيادة لكنها فقدت السيطرة عليها تماماً فاصطدمت في الكتلة أمامها وألقتها للأمام فارتطم رأسها بشدة في عجلة القيادة. عندما فتحت عينيها وجدت نفسها راقدة على الأرض في الطريق وصوت ظنت أنها لن تسمعه ثانية يقول:

«هيلين.. هيلين.. هل أنت بخير؟»

ركزت عينيها على الرجل الذي يركع بجانبها، وعلى شعره الكثيف ذي اللون الرمادي الفاتح وقد سقط على جبهته، وعلى ملامحه السمراء المتجهمة وعينيه الصفراوين الغريبتين وقد بدا فيهما الاهتمام وهو ينظر إليها.

تمتمت بصوت خافت:

«دومينيك.. أوه يا دومينيك.. لقد اصطدمت»

وأغرقت.

كانت تبدو على وجهه علامات الاجهاد.

«أيتها الغبية الصغيرة! كان يمكن أن تقتلي نفسك»

«هل كنت ستهتم؟»

تمتم ثم قام واقفاً فجأة:

«نعم كنت سأهتم»

وقف بعد ذلك ينظر إلى الطريق.. رفعت هيلين رأسها بحذر.. لم يكن بها شيء على ما يبدو عدا ما شعرت به من صداع خفيف.

وقامت جالسة وهي تنفض الثلج من كتفيها. استدار دومينيك إليها آمراً:

«ابقي كما أنت، سيحضر بولت الجرار حالاً ويشد السيارة من البركة»

تجاهلت هيلين أمره وقامت بشيء من عدم الاتزان. استدار إليها دومينيك وقال بضيق:

«قلت لك أن تبقي حيث أنت»

هزت كتفيها في محاولة للتحدي وأجابت قائلة:

«لا تستطيع أن تعطيني أوامر أنا لست بولت»

وكان يبدو عليه التفكير والاكتئاب.

«لاحظت ذلك، إن بولت ليس بهذه الدرجة من الإزعاج»

«أنا آسفة»

وكانت قد بدأت تفقد ما تبقى لها من تماسك. كان الموقف أكثر مما تستطيع أن تحتمل.. المكالمة الهاتفية لها هذا المساء، ثم الدوار الذي سببته محاولتها الهروب من المنزل، وأخيراً جاء هذا الاصطدام والنهاية التعسة لكل أملها كانت قشة تتعلق بها.

وشعرت بالدموع تنهمر على خديها فهي لم تشعر بمثل هذا الشقاء من قبل.

وسمع دومينيك بكاءها المكتوم فاستدار ونظر إليها. كانت في حالة سيئة. الثلج ما زال عالقاً بشعرها وملابسها، وتشعر بالبرودة الكاملة على وجهها.

قال بصبر نافد:

«أوه يا هيلين»

وقبل أن تفهم ما يفعله، رفعها بين ذراعيه وأخذ يسير نحو المنزل. لفت ذراعيها حول عنقه ورأسها يستند إلى صدره وبدأت تشعر بالشعور الجميل يسري فيها ولكنها تذكرت.. فرجته:

«أرجوك.. أنزلني، أستطيع أن أمشي.. لا يجب أن تحملني»

قال بحزم:

«أنا لست عاجزاً تماماً»

حاولت أن تجعله ينظر إليها ولكنه لم يفعل فاكتفت بأن تستمتع بوجودها بين ذراعيه، وساروا لعدة دقائق في صمت.

وعندما وصلا إلى الموقع الذي كان السبب في بداية مشاكلها سمعت صوت الجرار فأدارت رأسها ورأت بولت يتجه نحوها وتوقف أمامها تماماً ونزل ووجهه ينطق بالقلق.

«حضرت بأسرع ما يمكن»

صاح وهو يهز رأسه.

«مالها.. هل إصابتها خطيرة؟»

رفعت هيلين رأسها ورأت:

«أنا بخير يا «بولت» حقاً».

ولكنها لاحظت أن كل اهتمامه كان موجهاً إلى الخروج.

وأعطاها «دومينيك» لبولت فشعرت «هيلين» كأنها زينة غير مرغوب فيها وقالت لنفسها:

«أرجوك ـ أستطيع أن أمشي».

ولكن أحداً لم يلتفت إليها. سارا المسافة القصيرة الشاقة حتى وصلا وقد صلاها الشعر بشدة أن خرج «دومينيك» أرادها وأن «بولت» يلومها على ذلك. فشعرت بأسى أنها السبب رغم كل شيء.

كان مدخل المنزل مرة أخرى شيئاً غير سار وقد أوقفها «بولت» في الصالة قائلاً:

«اذهبي إلى سريرك يا آنسة وسأحضر لك مشروباً ساخناً بعد قليل».

«هذا ليس ضرورياً».

وبدأت تتكلم لكنها وجدت أنها تكلم نفسها سار «دومينيك» يخرج إلى غرفة الجلوس وذهب «بولت» وراءه وأغلق الباب بشدة كأنه كان يعاقب «هيلين». ونظرت إلى أعلى السلالم وجمعت قواها مرة أخرى. فمن الواضح أنه لا يهمها أن تحاول الهرب مرة أخرى هذه الليلة ـ ولكن من يستطيع أن يلومها إلى جانب شعورها أنها المخطئة الوحيدة لشك معها في قدرتها على جمع شجاعتها وحماسها لتحاول ذلك ثانية.

٨ ـ من سجن إلى سجن

أغلقت الآنسة عينيها بمجرد أن وضعت رأسها على الوسادة ولم تشعر إلا بطلوع النهار. فنهضت جالسة في السرير وهي تتوقع أن تجد الصداع مازال ولكنها لم تشعر بألم. وعندما فحصت جبهتها وجدت كدمة بسيطة يمكن إخفاؤها بشعرها.

وأخذت حمامها وارتدت تنورة خضراء قصيرة وقميصاً أبيض اللون وكانت تمشط شعرها أمام المرآة عندما أحضر لها «بولت» إفطارها وقال وهو يضع الصينية:

«السيد «لاميل» يريد أن يراك يا آنسة».

لم يكن في نبرات صوته تلك العاطفة التي اعتادتها.

«هل تعرف لماذا؟»

فهز «بولت» رأسه.

«سيشرح لك السيد «لاميل» عندما تريه يا آنسة».

وسار نحو الباب ـ وتبعته «هيلين» وراءه.

ـ «بولت»! «بولت»، ماذا حدث؟ أنت لست غاضباً مني لأني حاولت الهرب؟»

«لا يا آنسة».

تنهدت «هيلين».

«ولكنك غاضب ـ «بولت». قلت بالأمس إنك لا تريد أن تراني أتألم. بالطبع أنت تعرف أنه كلما طال بقائي هنا كلما زاد هذا الاحتمال».

«نعم يا آنسة».

«لو... بولت أرجوك حاول أن تفهم»

«أفهم يا آنسة»

«ولكن لماذا أنت هكذا؟»

وقطبت حاجبيها:

«إلا إذا كنت آسفاً لأني لم أتبعه»

«نعم يا آنسة»

تنهدت هيلين:

«هل كنت تريدني أن أتبعه؟»

«كان أفضل»

وقالت باستغراب:

«وكنت تتخيل أني سأحاول، لذلك تركت مفتاح السيارة فيها»

هز بولت كتفيه:

«لا يوجد لصوص هنا يا آنسة، والمفاتيح تترك عادة في السيارة، ولو...»

وهزت هيلين رأسها:

«لم أكن أعرف أنك ستعاديني إلى هذه الدرجة»

وانطلق قائلاً بولت:

«دومينيك هنا طيلة الأسبوع يا آنسة»

وبهذا التعليق الغامض انصرف.

وجلست هيلين تأكل إفطارها بقلب حزين. لمدة أسبوع كان بولت سندها في مواجهة عدم اهتمام دومينيك، وصديقها رغم اختلاف مواقعهما، ولكن الآن يبدو أنها ستفقد حتى صداقته. وهذا ما يريد دومينيك! أي سبب له يكون لديه ليطلبها إلا إذا كان لمعاقبتها على تصرفاتها السيئة بالأمس.

فحصت محتويات الصينية. ما إن جاءت إلى فكرة الأكل جعلتها تشعر بالرغبة في القيء، لكنها استطاعت أن تشرب فنجان القهوة لتهدئ أعصابها. عندما أزالت الصينية شعرت بالارتياح لأنها لم تجد بولت في المطبخ

وبسرعة ألقت كل محتويات الصينية التي لم تأكلها في صندوق القمامة وهي سعيدة أن بولت غير موجود ليرى ذلك.

ووجدت نفسها ثم خرجت من المطبخ وعبرت الصالة إلى غرفة الجلوس وفتحت الباب بحذر ونظرت في الداخل. لكن دومينيك لم يكن هناك. بالطبع لا، إذ أنه في غرفة المكتب يعمل. وطرقت باب غرفة المكتب ولكن أحداً لم يرد. نظرت في الداخل فتأكدت أنه ليس هناك. قطبت جبينها! أين يمكن أن يكون؟

قال بولت وهو يقف على السلم:

«إن السيد لا يزال في سريره يا آنسة. لو كنت أعلم أنك انتهيت من إفطارك لأحضرت الأطباق»

سألت هيلين:

«هل هو مريض؟»

واستدار بولت وقال:

«تعالي من هنا يا آنسة»

وصعدا إلى الدور العلوي واستدارا يساراً نحو غرفة دومينيك.

وفتح بولت الباب وأشار إليها بالدخول. ووجدت نفسها في غرفة بسيطة جداً لا تشبه غرفتها. أرضها من خشب مدهون مغطى بقطع أبسطة الزينة وجدرانها عارية، والسرير يشبه سريرها. والهواء البارد يدخل من النوافذ المفتوحة. لاحظت هيلين هذه الأشياء بسرعة ولكن عينيها انجذبتا إلى الرجل الجالس في السرير مستنداً على الوسائد ووجهه الأسمر شاحب ونحيل. وانتقلت نظراته منها إلى بولت ثم قال:

«حسناً يا بولت. يمكنك أن تتركنا»

وانصرف بولت ونظر دومينيك إلى هيلين قائلاً بجفاء:

«لا بد أنك تتعجبين لاستدعائي لك إلى هنا»

احمرت هيلين قائلة:

«هكذا أنت في الفراش! هل حالتك أسوأ كثيراً؟»

تحولت ملامح دومينيك إلى القسوة وقال بخشونة

«هل يمكن أن نترك موضوع ماضي جانباً؟ إنك هنا لأنني قررت أن أشركك شخصياً.»

«اتركني أذهب.»

تنهدت «هيلين» وبدا عليها القلق.

«سوف أصلح «بول» سيارتك وهي الآن في حالة جيدة وصالحة للاستعمال. كما أنه يقوم حالياً بإعداد حقائبك استعداداً لرحيلك.»

ولم تستطع «هيلين» أن تصدق ذلك.

«ولكن ماذا تعني؟ هل أنت مستعد للرحيل أيضاً؟»

وهز «دومينيك» رأسه.

«لا أظن ذلك. سنعتمد على أنك لن تفشي مكاننا لأحد.»

«يا إلهي! فكرت «هيلين» بأسى ـ إنها لا تريد أن تذهب! ليس الآن وهو في الفراش. قالت مرة أخرى:

«هذا الفراش؟ لماذا أنت في الفراش؟ أرجوك، أريد أن أعرف.»

«مطلقاً! هل تستحقين لمعرفة مدى ضعفي؟»

«وأنك لست ضعيفاً.»

«وإذن فأنا أفترض. هذا يكفي! ستنسين كل شيء عني وعن أمراضي السخيفة قريباً.»

وأطبقت يداه على ملاءة السرير:

«عن إذنك ـ دومينيك ـ إني ـ»

«أرجوك أن تذهبي.»

وكان صوته بارداً وحاسماً.

«مع السلامة. «بول» سيشرح التفاصيل وبتعليماته لن تجدي صعوبة في الوصول إلى الطريق الرئيسي.»

فركت «هيلين» يديها وقالت بطريقة يرثى لها:

«لن أذهب إذا لم تكن تريد ذلك.»

ولكنه كان بلا رحمة.

«يا فتاتي الصغيرة ـ أنا لم أكن أريدك هنا منذ البداية.»

كان «بول» خارجاً من غرفتها وهي تسير كالعمياء في الممر وكان يحمل حقائبها وظنت أنها رأت لمحة قصيرة شيئاً من التعاطف في عينيه ولكن هذا لم يدم إلا لحظة ثم أشار إليها أن تسبقه على السلم.

قال بصوت لا تعبير فيه:

«أحضرت كل شيء. هل ستحضرين معطفك أم أحضره لك؟»

«أنا سأحضره.»

لبست «هيلين» فروة الثعالب ثم قالت:

«لقد كنت أريد أن أشكرك على عنايتك بأشيائي.»

«التي كانت في المطبخ؟ إنها في الحقيبة يا آنسة ـ هل هذا كل شيء؟»

هزت «هيلين» رأسها بالإيجاب. عليها أن ترافقه حتى الخارج.

وكان قد أحضر سيارتها إلى الباب ولاحظت أنه قام بتنظيفها ووضع حقائبها في صندوق السيارة ثم أعطاها المفتاح قائلاً:

«المفتاح الآخر في «الكونتاكت» ـ هل أنت مستعدة؟»

هزت «هيلين» رأسها بالإيجاب ـ كانت تخشى أن تتكلم من شدة العاطفة [illegible].

وأشار إلى الطريق الذي سارت فيه الليلة الماضية وقال:

«اتبعي هذا الطريق حوالي ميل ونصف وستجدين منعطفاً على يسارك سيجري فيه وستصلين إلى قرية. هذه القرية هي «هوكسين» إذا سألت هناك فسيدلونك على الطريق الذي يؤدي إلى المكان الذي تريدين الذهاب إليه.»

هزت رأسها مرة أخرى ثم استطاعت أن تقول أشكرك وهي مختنقة.

«بالطبع ـ مع السلامة يا آنسة.»

«مع السلامة.»

نظرت «هيلين» مرة أخيرة إلى المنزل ثم إلى الرجل الذي يقف أمام الباب ثم ركبت السيارة وأدارت المحرك وتحركت بعيداً بدون أن تنظر خلفها.

وصلت إلى «هوكسين» قبل أن تمالك نفسها وبعد ذلك وضح لها

الطريق الذي تسلكه.

وسارت بدون تفكير. يكفي أنها عائدة إلى البيت. ولأي أفكار كانت لديها للفخ منذ أسابيع في منطقة البحيرات أصبحت مرفوضة الآن. وحتى منزل أبيها في ميدان بلزباري حيث يعيش مع إيزابيل فهو يمثل ملاذاً لها الآن ولعواطفها المزعجة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بقليل عندما وصلت إلى الميدان ورأت سيارة والدها الرولز رويس الرمادية أمام الباب. وتوترت أعصابها. كان هذا شيئاً آخر عليها أن تواجهه. وكانت تشعر أنه لن يكون سهلاً. كانت أطرافها متخشبة بعد أربع ساعات من القيادة. وكانت تشعر بصداع سببه التوتر العصبي. وصعدت سلالم المنزل ثم فتحت الباب بمفتاحها. وقد جذب صوت فتح الباب سيدة سمراء صغيرة الجسم. عندما رأت هيلين رفعت يديها في انفعال ثم صاحت:

«أوه.. يا آنسة هيلين.. شكراً لله لقد عدت!»

أغلقت هيلين الباب الخارجي واستندت عليه لحظة تستجمع قواها ثم حيت مدبرة منزل والدها بحنو:

«أهلاً يا بيتي.. هل كان هناك ذعر؟»

وهزت بيتي رأسها.

«ولم نعرف أين كنت يا آنسة»

«يا إلهي! هيلين!»

ونظرت هيلين إلى مصدر الصوت. والدها كان ينزل السلم بسرعة وهو يحدق فيها وكأنه لا يصدق عينيه. وشعرت بالخجل من نفسها عندما رأت خطوط الإرهاق حول عينيه. وفي لحظة كانت في أحضانه القوية وهو يضمها بشدة إلى صدره.

أخذ يتمتم وهو يتجاهل تماماً وجود بيتي:

«أوه. شكراً لله. شكراً لله أين كنت أيتها الصغيرة المشاغبة الغبية؟»

شعرت هيلين بالدموع تكاد تنهمر من عينيها. لكنها يجب ألا تسمح لنفسها بالبكاء. إذا فكر والدها أنها تبكي لرؤيته فإن أي ميزة اكتسبتها بذهابها ستضيع

منها ثانية.

وقالت أخيراً بعد أن أطلقها وأخذ ينظر إليها كأنه لا يستطيع إلا أن يفعل ذلك:

«ألم تصلك رسالتي؟»

«رسالتك! طبعاً وصلتني رسالتك ولولا ذلك لكنت فقدت صوابي الآن. بحق السماء، أين كنت؟ كانت نصف شرطة بريطانيا العظمى تبحث عنك»

استطاعت هيلين أن تبتسم.

«هل فعلت؟»

«نعم لقد فعلت. وكدت أدفع إيزابيل للجنون أيضاً. أين كنت بحق الشيطان؟»

سحبت هيلين نفسها من يديه ونظرت إلى بيتي باستعطاف.

«هل يمكن أن أشرب شاياً؟ لم أتناول شيئاً منذ الصباح الباكر»

«بالطبع»

ونظرت بيتي إلى السيد جيمس للموافقة وعندما هز رأسه موافقاً ذهبت بسرعة ثم سار والد هيلين إلى المكتبة وأغلق بابها المزدوج وراءهما.

قال بعد أن جلست في كرسي مريح ذي مسند:

«والآن أريد أن أعرف كل شيء»

تنهدت هيلين وهي تنظر إلى يديها.

«حسناً ليس هناك شيء كثير يقال حقاً»

«ماذا يعني هذا بالضبط؟»

وهزت كتفيها قائلة:

«ذهبت إلى منطقة البحيرات»

«ماذا فعلت؟»

«سامحني يا والدي.. ذهبت إلى منطقة البحيرات. إلى ذلك الفندق الصغير في بلزايس الذي اعتدنا النزول فيه عندما كنت طفلة»

فضاقت عينا السيد جيمس وقطب جبينه.

«القط الأسود».

«نعم هل تذكر؟ قضينا أوقاتاً سعيدة هناك أليس كذلك؟»

وحاولت هيلين أن تبدو متحمسة رغم أنها لم تكن تشعر بأي حماس، وقام والدها عن الكرسي وسألها بهدوء:

«وبقيت هناك كل هذه المدة؟»

«نعم.. أظن أنه آخر مكان كنت تفكر أن تبحث عني فيه.»

«في الواقع آخر مكان.»

وأخرج علبة سكائره وأخذ منها سيكارة وضعها في فمه.

«ما الذي كنت تريدين الوصول إليه بهروبك؟»

فكرت هيلين: سيسير الأمر على ما يرام.. أسهل مما توقعت حقاً. سيغضب والدها بالطبع بعد أن يستنفد شعوره الأول بالانشغال عليها، ولكنها متأكدة أنها تستطيع أن تسوّي الأمر.

ونظرت إليه بحب.. إنه ليس سيئاً حقيقة في قرارة نفسه. وبعد التجربة المؤلمة التي مرت بها هذا الأسبوع فإن المشاكل التي ستواجهها معه تبدو تافهة بالمقارنة. وتذكرت الضائقة التي مرت بها فشعرت بشعور مفاجئ باليأس الفظيع فأطبقت شفتيها وحاولت أن تركز تفكيرها على ما يقوله والدها فقط.

وقالت أخيراً:

«كنت أحتاج لبعض الوقت يا والدي.. وقت لأفكر بطريقي.. لأراجع الأمور بيني وبين نفسي.»

ورفع فيليب جيمس كأسه من الإبريز واحتسى. كان متوسط الطول ولكن جسمه النحيل قليلاً كان يجعله يبدو أكثر طولاً.

وقال بحدة:

«أظن أن هذا الكلام مقصود به كابح السيارة.»

«نعم بشكل ما.»

«وأنك ما زلت تصرّين على عدم الزواج به؟»

«نعم.»

قال بغضب:

«لكن مع من كنت؟ لأني أؤكد لك يا هيلين أنك لم تنزلي في القط الأسود في باريس.»

فمن حظ هيلين أن تيسي دخلت بفنجان الشاي في هذه اللحظة وأخذت ترتب الفناجين في أماكنها ونقلت النظر إلى طبق الفطائر والبسكويت وكعكة البهار الطازجة تلك.

«ظننت أنك قد تكونين جوعى يا آنسة.. إنك تبدين نحيلة تماماً أو بدون شك يبدو أنهم لم يكونوا يطعمونك جيداً.»

وصاح فيليب جيمس بغضب:

«هل كنت تتصنتين وراء الباب يا تيسي؟»

واعترضت تيسي:

«لا يا سيدي، أنا لا أتصنت على أحد. أنا لست من ذلك النوع. ولكنها ليست تطلعني لا تستطيع القول أن الآنسة هيلين لم تكن في ذلك الفندق.»

وهز فيليب جيمس رأسه باستسلام.

«هذا يكفي يا تيسي.. ويمكنك أن تذهبي.. الآنسة هيلين تستطيع أن تأخذ ما تريد بنفسها.»

وانصرفت مديرة المنزل وبعد ذهابها اتكأت هيلين على إبريق الشاي وهي تحاول إخفاء مفاجأتها بما قاله والدها.

«حسناً يا هيلين أنتظر الرد.»

وقال والدها وهو يعود إلى كرسيه أمامها ويطفئ سيكارته التي لم يدخن إلا نصفها.

«أريد أن أعرف أين كنت.»

أخذت هيلين كأسها وسألت وهي تحاول أن تكسب بعض الوقت.

«كيف علمت أني لم أكن في باريس؟»

«بالطرق المعروفة.. لقد أجرينا البحث وعلمنا أنك لم تكوني مسجلة هناك في الفندق.»

«ولكن كيف علمت أني قد أذهب إلى هناك؟»

«لم أعلم، ولكن عندما تبين أنك لم تغادري "انكلترا" على الأقل بالطرق المعروفة كان يجب أن أفكر في المكان الذي قد تكونين فيه.»

«ولكن باريس؟»

«لم لا؟ قضينا فعلاً أوقاتاً سعيدة هناك. أنا أوافقك على ذلك - كان أسبوعاً ممتعاً.»

حركت "هيلين" رأسها يمنة ويسرة - إذن لم كانت ذهبت إلى الفندق الصغير الذي كان يبدو أحسن ملجأ لها من أسبوع لزوجها ووالدها بعد أيام قليلة. كان يجب أن تفعل الشيء غير المنطقي على الإطلاق. ولكن لم تفعل ذلك لما تمالكت "دومينيك" لأول لما وقعت في حبه ولما تحملت كل الألم والإذلال على يديه.

والدها شعرها باليأس. هل كانت تفعل ذلك لأنها لا تعرف عنه إطلاقاً ولو شاركه ولو أرادت تسير على الأقل أمام وحدته في مواجهة لكنها الآن ستعاني من آلامها الخاصة هي أيضاً.

وقالت بيأس:

«يجب عليّ ألا أستطيع الذهاب بضعة أيام بدون أن أتكلم فيها من الذين قضيت معهم ما الذي كنت تريده بالضبط عني ويوماً كنت ستعثر أو وجدتني في الفندق "النور الأسود"؟»

بدا والدها يغضب وقال بعصبية:

«لا تجيبيني أنك أغضبتني يا "هيلين". لقد سألتك أين كنت ومع من. هل ستجيبينني؟»

نظرت إليه "هيلين".

«وإذا قلت لا؟»

توقف والدها كأن القلب يخذله.

- "هيلين" ... الأخيرة؟

«لم أكن مع أحد.»

«هل تتوقعين أن أصدق ذلك؟»

«لا يهم ماذا تصدق.»

- "هيلين" إني أعترف

«أنا يا والدي - أرجوك - لا أستطيع أن أشرب الشاي بدون هذا التحقيق.»

وضع والدها يديه في جيبي بنطلونه.

«حسناً... حسناً.»

وقال وهو يحاول ألا يفقد أعصابه:

«اشربي الشاي. أستطيع أن أنتظر.»

سكبت "هيلين" الشاي ووضعت الحليب ثم أخذت ترشفه ببطء. كان الشاي الساخن منعشاً جداً وسكبت لنفسها فنجاناً آخر وكانت تشعر أن والدها يراقبها وأن عينيه ترصدانها مع كل دقيقة.

ولم يعجبها الطعام. إنها تشعر فعلاً بالجوع ولكنه جوع الروح وليس الجسد.

كانت صورة "دومينيك" الأخيرة وهو شاحب ومتعب في سريره لا تفارقها.

«حسناً يا "هيلين"... هل ستخبرينني أين كنت؟»

ونقلها صوت والدها إلى أفكارها القلقة.

وقالت بهدوء:

«لا أريد أن أتكلم عنها يا والدي. لا أستطيع أن أقول أين قضيت بعض الأيام الماضية.»

«ولكن أين قضيت هذه الأيام - في الفندق؟»

وترددت "هيلين".

«وأين يمكن أن أقضيها؟»

«هذا ما أريد أن أعرفه.»

تنهدت.

«إني أفضل عدم مناقشة الموضوع - إذا كان هذا لا يضايقك.»

«وإذا كان لا يضايقني؟»

وقال وقد أقلق ليخفيه:

«اسمعي يا "هيلين" - يجب توضيح الأمر - ليس فقط لي ولكن لجميع الآخرين الذين استأجروا البحث عنك. هذا أقول لك»

www.liilas.com

«لا أستطيع أن أقول إنه كان خطأ كبيراً وأنني لم أكن مخطئة؟ أقصد في رسائلي وصفاتك.»

«هل تظنين أني أخدعهم في رسائلك؟ هل تظنين أنني غبي؟»

ووضعت هيلين فنجانها الفارغ.

«أنا آسفة يا والدي لكنني لا أريد أن أتكلم في هذا الموضوع.»

«لم لا؟ ما الذي حدث؟ هيلين ... أنا لا أكون ذكياً فيما يختص بك ولكني أعلم أنك تخفين شيئاً. هناك شيء يضايقك أو شخص ما وأنا أحب معرفة الحقيقة.»

وضاقت عيناها.

«ما هذه التكشيرة في جبهتك؟ كيف حدثت؟»

«لا شيء... لقد خبطت رأسي. هذا كل ما في الأمر.»

«كيف خبطت رأسك؟»

«كيف يخبط أي شخص رأسه؟ أرجوك يا والدي إنا تعبة ومرهقة ـ هل أستطيع أن أذهب إلى فراشي؟»

«هل ضربك أحد؟ هل هذا ما حدث؟ لأني أعرفك يا هيلين إذا كان هذا ما حدث واكتشفت من هو...»

«لا تكن درامياً يا والدي ـ إنك تعلم شعوري بالنسبة إلى مايكل قبل أن أذهب ولن تستطيع إرغامي على هذا الزواج ولا شيء تستطيع أن تقوله سيجبرني عليه.»

أخذ يذرع الغرفة بطول قائلاً:

«ولم لا؟ ما الذي يعيب مايكل؟ يا إلهي، لقد قضيت معه وقتاً طويلاً وكنت أظن أنكما معجبان ببعض وكذلك والده كان يظن الشيء نفسه.»

«كنا وأظن أننا مازلنا ـ ولكن هذا لا يكفي لأن نتزوج.»

«لم لا؟ هل تظنين أني وإيزابيل...»

«ما فعلته أنت وإيزابيل يخصكما وأنا لا دخل لي به.»

واحمرّ وجه والدها.

«إذا كنت لا تريدين أن تتزوجي مايكل إذن لابد أنك وجدت شخصاً آخر.»

«حقاً يا والدي؟»

«ما الخطأ في هذا الرأي؟»

«من كنت ستقابل وأنت ووالد مايكل وراءنا في كل خطوة؟»

«لا أعلم... من المفترض أنك تعرفينه...»

«لا لم أفعل.»

ونظر في عينيها.

«هل يمكنك أن تؤكدي بأنك قضيت هذه الأيام الأخيرة بمفردك ـ أو على الأقل بدون صحبة رجل؟!»

أحنت هيلين رأسها بسرعة حتى لا يرى والدها وجهها وقالت:

«نعم.»

«أنا لا أصدقك. أنا لم أصدقك من قبل وأنا لا أصدقك الآن ـ هيلين إذا كنت تكذبين علي...»

«ماذا يحدث هنا؟»

جاءت كلمات زوجة أب هيلين الباردة القاطعة كالثلج على الهواء الساخن، ولأول مرة تشعر هيلين بالسرور لرؤيتها برغم أن كلماتها لم تكن مرحبة. قالت بجفاف:

«إن كان ما حدث، كان يجب أن أفهم أن الصخب عالٍ هي طريقتك للترحيب بالابنة الضالة.»

أحنى فيليب كتفيه العريضتين وهو ينظر إلى زوجته.

«لا تتدخلي في هذا يا إيزابيل ـ لقد عدت مبكرة أليس كذلك؟ ألم تستطيعي اللعب؟»

«إن اهتمامك يغمرني يا عزيزي ـ ولكن الجو كان بارداً وبرغم أني أحب الجولف لكنها ليست لعبة يمكن أن نلعبها بأصابع متجمدة.»

ثم نظرت بعينين ناعستين إلى هيلين.

«حسناً أين كنت؟ هل كنت تقضين أسبوعاً ممتعاً مع صديقك الغامض؟»

«إيزابيل!»

أسكتها صوت زوجها وقالت «هيلين» بنعم الآن وسألت بهدوء:

- هل أستطيع أن أذهب إلى فراشي يا أبي؟

قال «فيليب» بغضب:

- نعم. ولكن الموضوع لم ينته بعد.

- نعم يا أبي.

سارت «هيلين» نحو الباب وهي تحاول السيطرة قدر الإمكان على نفسها كل شيء. يتكرر مرة ثانية. المجتمع غير الطبيعي الذي تريد فيه يستمر مرة أخرى وهي تكره التكلف وعدم البساطة فيه. ربما كان «دومينيك» على حق في الابتعاد عنه. وربما يجب عليها أن تفعل الشيء نفسه. ولكن الشيء الوحيد المؤكد هو أن الأمور لن تكون كما كانت.

وخلال الأسابيع التالية حاولت «هيلين» أن تعود إلى نظام حياتها القديم. وبرغم أن معظم أصدقائها بحيوتها كانوا متحمسين لدعوتها إلى العشاء لكنها كانت فقدت حماسها لهذه الأمور. كانت تريد إبعاد كل الأفكار الخاصة بذلك الأسبوع من مخيلتها ولكن هذا كان مستحيلاً. وكان «دومينيك» يسيطر على تفكيرها. كانت لا تأكل ولا تنام وربما تأثير ذلك يبدو عليها.

وكان مايكل فرانسيس أول من لاحظ التغير عليها. بدأت تقابله مرة أخرى من ناحية لأنه هو ووالدها يريدان ذلك. ومن ناحية أخرى لأنه كان مرافقاً مريحاً مريحاً على مشاعرها الرقيقة منعته من توجيه الأسئلة. وفكرت «هيلين» أنها قد تخبره ذات يوم بما حدث لأنها تستطيع أن تخفي مشاكلها «مايك» ولا تعرف ما إذا كان رد فعله سيكون منطقياً كالعادة عندما يتعلق الأمر بمسألة تخصه كهذه.

وبعد ظهر أحد الأيام بعد أن زارا أحد المعارض الفنية في قاعة «هيوارد» تناولا الشاي في مطعم صغير بجوار نهر «التيمس». كان الجو دافئاً وكانت أزهار النرجس الصفراء قد بدأت تتفتح في الحديقة. وانتظر «مايك» حتى انصرفت الفتاة التي أحضرت لهما الشاي وقال بهدوء:

- إلى متى تظنين أنك تستطيعين الاستمرار على هذه الحالة؟

ورفعت «هيلين» رأسها بعنف. كانت ترسم بأصبعها على طرفي المنضدة وهي

سارحة في أفكارها ولم تنتبه إلى وجوده تقريباً. وصاحت وقد احمر وجهها:

- ماذا... ماذا تعني؟

- أظن أنك تعرفين ماذا أعني.

قال ذلك ثم تولى سكب الشاي لنفسه.

- إلى متى تستطيعين العيش متكلة على أعصابك؟ أنك لا تأكلين ومظهرك يدل على أنك لا تنامين أيضاً.

وقالت محاولة تغيير الموضوع إلى مزاح:

- هل منظري بهذا السوء؟

تنهد «مايك»:

- مشكلتك على ما يرام وأنت تعرفين ذلك. لكننا نعرف بعضنا جيداً يا «هيلين» وأنا أعلم أن شيئاً ما أو شخصاً ما يضايقك.

قالت «هيلين» وهي تمد يدها إلى قدح الشاي:

- كان الشتاء طويلاً.

- وأنا لم ألاحظ ذلك.

- مظهرك متعب... أليس كذلك؟

قال «مايك» وهو يشرب الشاي:

- حسناً... إذا كنت تفضلين عدم الكلام عن الموضوع؟

وقالت «هيلين»:

- أنا لم أقل ذلك بالضبط.

- ولكن ألست تعترفين أن هناك شيئاً يقلقك؟

هزت «هيلين» رأسها وقالت ببطء:

- نعم أظن ذلك.

- وإنه رجل أليس كذلك؟

- تقريباً.

ثم نظرت «هيلين» إليه:

- «مايك»... إنك تعلم أن والدي... أقصد أنك تعلم أن والدينا يريدان أن نتزوج؟

«بالطبع»

«لقد خمنت... على الأقل بمعرفتك أني لا أريد الزواج منه»

فأمال مايك رأسه

«هذا واضح جداً حتى لي»

نظرت إليه هيلين بأسف

«أوه يا مايك إنك لطيف جداً كنت أتمنى أن أحبك ... كان الأمر يصبح أكثر بساطة»

وهز مايك رأسه

«الحقيقة نادراً ما تكون بسيطة يا هيلين وأنا متأكد أن هذه طريقة لطيفة لتخبريني أنك لا تريدينني»

«ربما»

فقالت هيلين وهي تضع يدها على يده فوق الطاولة

«ولكنك لطيف وطيب ومتفهم»

ورد مايك عابساً

«يا له من اعتراف خطير»

«أنت تعلم ما أقصده»

«للأسف أني أعلم ... وبحق السماء لا ألومك ولكن شخصاً آخر يفعل هذا ... هل هذا ما تحاولين قوله؟»

نظرت هيلين إلى يده البيضاء الرقيقة المختلفة تماماً عن يد [illegible] القوية السمراء.

«نعم ... هذا ما أحاول قوله»

«وإن هذا الأسبوع الذي غبت فيه، هل كنت مع هذا الرجل؟»

سحبت هيلين قائلة بهدوء

«قابلته عندما كنت غائبة»

«فهمت. وواضح لا يريد أن تكون لك به أية علاقة»

«بحق السماء! الأمر ليس كذلك على الإطلاق»

سحبت هيلين يدها وأطبقت قبضتيها

«والذي لا يعرف شيئاً عن الموضوع وأنا لا أريده أن يعرف»

«لم لا؟»

«لأنه لن يفهم»

«لماذا؟ من هو ذلك الرجل؟ ماذا تعرفين عنه وأين يعيش؟»

«أوه يا مايك لقد بدأت تفعل مثل والدي»

وقال مايك وهو يضغط على نفسه لئلا يفقد صبره

«حسناً.. تكلمي أنت في الموضوع بكلماتك»

«إنه كاتب»

«كاتب قصص؟»

«ليس بالضبط ... إنه يكتب كتباً غير روائية»

«هل أعرفه»

«لا أظن»

«لم لا؟ إني أعرف كثيراً من الكتاب»

«إنه لا يختلط بالمجتمع»

«من هو؟»

«لا أستطيع أن أخبرك»

«لم لا بحق السماء؟ هيلين أنت تعرفين أن أي شيء تخبرينني به سأبقيه طيّ الكتمان وإلا ما كنت بدأت أصلاً أن تقصي عليّ ما حدث»

«أعرف، ولكن هذا مختلف ... لقد وعدته»

واستدار مايك في كرسيه وقال بخشونة

«إنه متزوج»

قالت هيلين وهي تفحص فنجان الشاي في يدها

«حسناً على الأقل أنت تعرف الموقف الآن»

«ليس بما فيه الكفاية. إنك تقولين أنك قابلت أحداً وأنت مسافرة، وأن هذا الشخص متزوج! ماذا تعنين بذلك؟ هل أحببته؟»

ترددت «هيلين» ثم قالت:

«وهل تريد أن أعيده؟»

قال «مايك» بحسرة:

«طبعاً لا تريدين إعادته.»

«قد يكون هذا غريباً يا «مايك» ولكن أظن أنه يميل إليّ كثيراً.»

انعكس على وجه «مايك» انفعاله.

«- «هيلين» هذا يصبح أكثر جنوناً كل لحظة.»

«لماذا؟»

«كيف وقعت في حب ذلك الرجل إذا كان هو لا يميل إليك؟»

قالت «هيلين» بأسف:

«بسهولة جداً للأسف.»

ورد «مايك» وهو يمسك يدها:

«أي يا «هيلين» ألا تظنين أن كل ذلك خيالي أكثر من اللازم؟ أقصد أنك قابلت رجلاً انجذبت إليه وظننت أنك وقعت في حبه ولكن يبدو أن كل شيء انتهى الآن - أليس كذلك؟ ما الذي تستطيعين عمله؟ لا معنى للمخاطرة بصحتك بعدم الأكل والنوم.»

«هل تظن أني لم آكل ذلك الشيء منذ الزيارة؟»

واستمر يقول بإصرار:

«وإلى جانب أنه من المحتمل أن يكون متزوجاً أو خطيباً أو شيئاً من هذا القبيل. هل فكرت في هذا الاحتمال؟ في كل حال لابد أن هناك امرأة في الموضوع.»

قالت «هيلين» بتأكيد:

«إنه ليس متزوجاً.»

«قد يكون له خطيبة.»

«لا.»

«كيف يمكنك أن تتأكدي من ذلك؟»

«لأني أقمت في منزله.»

وبعد أن نطقت بتلك الكلمات تمنت لو أنها لم تقل. كان «مايك» يحملق فيها غير مصدق ما تقول كأنه لم يرها من قبل. أحست بالحرارة في خديها.

ردد «مايك» بعدم تصديق:

«أقمت في منزله؟ كيف يمكن أن تفعلي ذلك بحق السماء؟»

وهزت «هيلين» رأسها.

«أي يا «مايك»... أرجوك لا تسألني. أرجوك.»

«هل عشت معه؟»

«إذا كنت تقصد كزوجين فالجواب لا.»

بدا عليه شيء من الارتياح ثم استمر قائلاً:

«ولكن كان هناك علاقة ما بينكما أليس كذلك؟»

«تستطيع أن تقول ذلك.»

فتنفس بعمق:

«أي يا «هيلين» لم لا تخبريني بالحقيقة؟ قد أستطيع مساعدتك.»

«حسناً - سأحاول أن أشرح بقدر ما أستطيع.»

وهز «مايك» رأسه موافقاً واستطردت تقول:

«لقد توقفت سيارتي في العاصفة الثلجية.»

«أية عاصفة؟»

«العاصفة التي واجهتني وأنا أقود سيارتي.»

«وإذن ذهبت فعلاً إلى منطقة البحيرات؟»

«نعم وكما قلت توقفت سيارتي ولقد أتى هذا الرجل لمساعدتي.»

«وقد تبعته.»

«ثم عرض أن يأويني تلك الليلة وقبلت.»

«واستمري.»

«في الصباح كان الجو سيئاً - فبقيت في منزله.»

«بمفردك مع هذا الرجل؟»

«لا ليس بالضبط - كان لديه خادم - كنا ثلاثة.»

«وبقيت كل الأسبوع بمنزله»

«نعم»

«ووقعت في حبه؟»

«نعم»

«ولكن ماذا حدث؟»

«لأنه طلب مني أن أذهب»

نظر مايك إليها.

«يا إلهي! لماذا؟ ماذا فعلت؟»

لم تستطع هيلين أن تقابل نظرته.

«لم أفعل شيئاً. لقد أخبرتك بما حدث»

«بل قصة معينة عما حدث»

«ماذا تقصد؟»

«يا هيلين.. لماذا يطلب منك هذا الرجل أن تبقي في منزله إذا كنت لا تعجبينه؟ ثم لماذا يطلب منك فجأة أن تذهبي؟ إن هذا غير مفهوم. هل كان جذاباً جداً؟»

فتنهدت هيلين.

«إنه يعرج، وهذا يسبب كثيراً من المشاكل»

«هل هو كسيح؟»

«ليس بالضبط، إنه يحتاج للراحة»

«وهذا هو الرجل الذي وقعت في حبه؟»

كان مايك مندهشاً جداً وأضاف:

«تقولين أنه لا يميل إليك وهو كسيح أيضاً فوق كل شيء.. يا إلهي هيلين لم أكن أتصوّر أن..»

نظرت إليه هيلين.

«أعرف ما تحاول أن تقوله يا مايك.. إنك لا تستطيع أن تتصور كيف أجد مثل هذا الرجل جذاباً بينما أستطيع أن أتزوج شخصاً بكامل صحته ويرغب كثيراً في البقاء قربي دائماً»

بطريقة.

قالت هيلين وهي تهز كتفيها باستسلام:

«أعرف.. أن هذا سيكون تصرف والدي بالضبط لو أخبرته»

«هذا طبيعي»

وبدا عليه عدم الإدراك الكامل.. فقالت:

«ولذلك لم أخبره»

وهز مايك رأسه بالموافقة

«لقد بدأت أفهم»

أخذ يفكر لحظات فيما قالته ثم قال:

«أخبريني يا هيلين.. هذه العلاقة التي كانت بينك وبين هذا الرجل، هل هي علاقة عاطفية؟»

«يمكن أن تسميها كذلك»

«ولكنه لم يكن مهتماً؟»

«لا»

«هل أنت متأكدة من ذلك؟»

قالت بيأس:

«طلب مني أن أذهب.. أليس هذا كافياً؟»

«نعم ولكن ألم تفكري في أن السبب قد يكون شعوره بعجزه؟»

فحدقت فيه هيلين.

«ماذا تقصد؟»

«من الممكن أن شعوره بالعجز كبير لدرجة تمنعه أن يطلب من أحد مشاركته حياته»

«لا.. لا»

رفضت هيلين أن تفكر في هذا الاحتمال الجديد القلق.. إنه ببساطة غير ممكن.. إن مايك لا يعرف جميع الحقائق فكيف يمكن أن يعطي تفسيراً معقولاً؟ على سبيل المثال فهو لا يعلم أن دومينيك لم يدعها البقاء في منزله

ولكنه حبسها فيه. وهو لا يعلم أنه منذ ذلك الحادث الرهيب الذي قتل فيه شقيقه وأدى لإصابته رفض موسينياك مخالطة النساء، وأخيراً لا يعلم أن موسينياك كان يجري في تلك الليلة الأخيرة أن ... ولم يمنعه من ذلك إلا اعترافها القاطع بحبها له. هذا الحب الذي رفضه على الفور - لا. إن موسينياك ليس عاجزاً بأية حال.

«حسناً؟ ستفعلين الآن؟»

تساءل صوت مايك من أعماقها

«لا شيء، على ما أظن»

«هل تدركين أن والدك مازال مصمماً على أن يعرف أين كنت؟»

تحاشت عينيها

«هل أخبرك بذلك؟ هل طلب منك أن تحاولي أن تعرفي؟»

قالت بصراحة

«نعم»

وهزت هيلين رأسها

«لقد خمنت ذلك»

وأمسكت بيديها بحنان

«تظنين أنك تستطيعين أن تثقي بي - أليس كذلك؟»

قالت وهي تبتسم قليلاً

«نعم أعلم ولولا ذلك ما كنت هنا»

٩ - الزيارة

ورغم أن هيلين رفضت الزواج مايك، وأن موسينياك قد تكون لديه أسباب يجهلها يطلب منها الرحيل، وجدت نفسها في الأيام القليلة التالية تفكر باستمرار في هذا الاحتمال.

فقط كثيراً ترددت على ذهنها ولكنها استبعدتها ولم تستطع أن تصل إلى قرار إلا عندما عرفت رأي إيزابيل. كان ذلك صباح أحد الأيام بعد أسبوع من عودتها. كان والدها قد انصرف إلى عمله وجلست هي و إيزابيل تشربان القهوة وقالت بلطف

«إنك تبدين في أسوأ حال. يجب السفر يا هيلين لتعودي لرؤية هذا الرجل أيا كان»

«أي رجل؟»

«أرجوك لا تقولي في هذا الكلام»

وأجابت إيزابيل بمكابرة

«ذلك الرجل الذي يجعلك لا تنامين. لا داعي الآن لتتظاهري بغير ذلك. أنا أعرف الأعراض»

ونظرت هيلين إلى يديها

«هل طلب والدي منك أن تحدثيني في هذا الأمر يا إيزابيل؟»

«بالطبع لا... هل تظنين أن والدك يتصور أني أستطيع التأثير عليك في أي شيء؟»

«لا أظن ذلك»

«إذن لماذا لا تطلعين أحداً؟ لا بد أنه رجل له قيمته. إنني لم أره بهذا الشكل أبداً».

تنهدت هيلين وقالت:

«إنك تجعلين الأمر يبدو سهلاً».

«أليس هو كذلك؟ ما المانع؟ هل هو متزوج؟»

«لا».

«إذن ما الذي يمنعك؟»

نظرت هيلين إلى زوجة أبيها وقالت بهدوء وقد وصلت إلى قرار:

«لا شيء... لا شيء أبداً».

وابتسمت إيزابيل:

«هل أفهم أنك ستمضين بضعة أيام أخرى؟»

«افهمي ما تريدين».

«في أي حال لا تقلقي بذلك.. سأخبر فيليب أنك ذهبت لقضاء بضعة أيام مع إحدى صديقاتك.. ما رأيك في ذلك؟»

قالت هيلين بسخرية وهي تقف:

«إنه كالعادة».

وضحكت إيزابيل:

«يا عزيزتي.. أريدك فقط أن تكوني سعيدة».

«شكراً، وحباً منك أيضاً».

«إنه أجمل شعور».

هزت هيلين رأسها وخرجت من الغرفة. إيزابيل امرأة رائعة بصراحة في أي حال إذا كانت تستطيع أن تهدئ شكوك والدها فهذا شيء حسن.

كان الوقت يقترب من موعد الغداء عندما استطاعت هيلين أن تخرج ثانية في رحلتها إلى «فوكستون» في الشمال.

وصلت «فوكستون» حوالي الغروب وبينما كانت تسير في القرية كانت تبحث بعينيها عن فندق صغير قد يستقبل زائراً لقضاء الليل. هناك فندق واحد وهو

فندق «البجعة» وقد أخذت غرفة بالفعل من باب الاحتياط. وزمت شفتيها. هل يحتمل أن يمنعها «دومينيك» من دخول المنزل بعد أن سافرت كل هذه المسافة؟ هل يرفض مقابلتها؟

كان من السهل أن تجد المنزل القديم في ضوء النهار. لكن ضوء النهار لن يستمر طويلاً. زادت سرعتها وأخيراً وصلت إلى الباب الأمامي. لم يكن هناك أي علامة من علامات الحياة وهي تقترب من المنزل. لا دخان يتصاعد من المداخن ولا صوت الحيوانات من الخلف.

أوقفت السيارة وخرجت منها وهي ترتعش وتنظر إلى النوافذ الموصدة.

كانت تريد أن تدير المقبض وتفتح الباب. لكن فكرة أن «نيسا» قد تكون وراءه منعتها وبدلاً من ذلك طرقت الباب ووقفت تنتظر بصبر أن يفتح «دومينيك». ولكن أحداً لم يرد. ترددت أصوات طرقها في المبنى الخالي فتملكتها موجة من خيبة الأمل غير المتوقعة.. كان افتراضها الأول صحيحاً.. إن المنزل مهجور.. لقد رحلوا!

حاولت أن تفتح الباب بعصبية أملاً ضئيلاً أن تكون مخطئة ولكنه كان مغلقاً بإحكام. وجولة سريعة في الفناء الخلفي أكدت لها أن الحيوانات غير موجودة أيضاً. ولكن إلى أين؟ ومتى؟ ولماذا؟ تنهدت بخيبة أمل. هل تصورت أنها ستأتي وتجده واقفاً في مكانه؟

بشعور من الاكتئاب عادت إلى السيارة. ومرت بها سيارة واحدة في طريق عودتها سيارة رمادية عادية لكن راكبها كان قصيراً وسميناً وأشقر ولا يشبه أبداً «دومينيك» لانيه أو «بول».

رحب مدير فندق «البجعة» بها وبعد أن دخلت غرفتها نزلت السلالم لتناول عشائها في غرفة الطعام. لم يكن هناك إلا نزيل واحد آخر. كان رجلاً قصيراً أشقر له شارب.

كانت شبه متأكدة أنه الرجل نفسه الذي رأته من قبل عندما تركت المنزل. لكنها كانت مشغولة بالتفكير في أشياء أخرى فلم تلق بالاً إلى ذلك الشخص.. بعد أن انتهت من طعامها حاولت التحدث مع المدير قائلة:

«أخبرني.. هل ذلك المنزل في أعلى الطريق.. القريب من هنا..»

«هل تقصدين منزل "الميدوز" يا آنسة؟»

«إذا كان هذا اسمه.. مبنى قديم ولكنه لطيف.»

«إنه هو يا آنسة. هل أنت مهتمة به؟»

«أنا.. حسناً.. أظن ذلك.»

هز المدير رأسه بأسف.

«ويبدو خالياً ولكنه ليس للبيع.»

«ليس للبيع؟»

«لا. الشخص الذي يملكه مسافر هنا كل ما في الأمر سمعت أنه ذهب إلى المستشفى.»

«المستشفى؟»

وصاحت "هيلين" بدون تفكير ثم أجبرت نفسها أن تسترخي وتبتسم:

«أقصد.. هذا مؤسف. هل هو أمر خطير؟»

«لا أستطيع أن أعرف بالضبط يا آنسة.. لم نكن نراها كثيراً هنا.»

«نعم معه شخص آخر اسمه "بولند" كان يحضر إلى القرية وإن كان هذا لا يهمك يا آنسة.»

«أوه.. إنه يهمني.. استمر.»

نظر إليها المدير نظرة غريبة.

«لعلك تعرفين هذا الشخص؟»

أخفت "هيلين" وجهها في فنجان القهوة وهزت رأسها بشدة بالنفي. واستطرد المدير قائلاً:

«على أي حال أتوقع أنهما سيعودان. ليس هناك أمل كبير في أن يبيعا المنزل.»

«ها.»

وكانت "هيلين" تسأل نفسها كيف تصوغ سؤالها التالي:

«يبدو من المؤسف أن يبقى المنزل خالياً ولكن لماذا لم يظل "بولند"؟ كنت أظن أنه يبقى في المنزل بينما صديقه في المستشفى لو كانا سيعودان.»

«آه.. نعم. ولكن كما سمعت ذهبا إلى "لندن".. من الجائز أن هذا الشخص كان يجب أن يدخل المستشفى هناك.»

«لندن؟»

شعرت "هيلين" بالخذلان. جاءت كل هذه المسافة إلى هنا، و"مونتيث" و"بولند" في إحدى مستشفيات "لندن". ولكن لماذا؟ ماذا حدث لهما؟ شعرت أنها تريد أن تأخذ سيارتها وتسرع عائدة إلى "لندن" ولكنها بالطبع لا تستطيع ذلك.. تركها المدير وذهب ليتحدث إلى النزيل الآخر فقامت وصعدت إلى حجرتها. ستذهب لتنام مبكراً وفي الغد ستغادر الفندق بعد طلوع النهار.

ولأول مرة منذ عدة أسابيع نامت نوماً عميقاً. كانت متأكدة أن ذلك لأنها كانت تشعر بأنها مرهقة.

ولكن في اليوم التالي شعرت بالنعاس وعادت إلى المدينة بحواس أكثر.

كانت مستلقية بتعب في كرسيها بعد أن أتعبتها عيناها من كثرة البحث في دليل التليفون عندما دخل والدها. فنظرت إليه نظرة استكشافية فرمقته في حال من التعب الشديد.

«ماذا تفعلين بحق السماء؟»

سألها وهو يدفع أحد أدلة التليفون الضخمة التي تركتها على السجادة بقدمه.

وتنهدت "هيلين" وقالت بهدوء:

«أجري مكالمات تليفونية.»

«أرى ذلك.. من تطلبين؟»

«هل هذا مهم؟ ألا أستطيع أن أجري مكالمة تليفونية قبل أن أستأذنك؟»

«لا تكوني وقحة.»

دفع والدها يديه في جيبي بنطلونه.

«ماذا ذهبت إلى "مركسير" أمس؟»

وفتحت "هيلين" فمها في دهشة.

«كيف عرفت يا أبي.. لا يمكن أن تطلب من أحد أن يتبعني!»

«لم لا؟ هناك شيء يضايقك منذ ثلاثة أسابيع.»

كان هذا رد والدها باقتضاب.

وارتعشت شفتا «إيلين».

«أفهم».

وقف والدها أمامها ونظر إليها بصبر نافد.

«هل ستخبرينني لماذا ذهبت إلى «موكستون»؟ أم أخبرك أنا؟»

«أنت تعلم».

«أظن ذلك».

كان والدها يتكلم بسخرية.

«أظن أنك ذهبت لمقابلة رجل كنت تظنين أنه يقيم في منزل «السيورد» بوصفه

لاتيمر».

كانت «إيلين» ترتجف.

«أوه يا والدي! لماذا لا تترك الأمور تسير كما هي؟»

«يا «إيلين» أنت ابنتي الوحيدة. هل تظنين أني سأجلس هادئاً وأتركك تحطمين حياتك ـ حياتك التي خططتها لك؟»

«أنا أبلغ الثانية والعشرين يا والدي».

«ربما أنسيت ذلك ـ إنك ما زلت ابنتي ومن حقي أن أعرف ماذا تفعلين».

«يا والدي، إنك لا تفهم».

«أفهم جيداً الآن ـ ماذا كنت تأملين أن تلتقي بعشيقك «لاتيمر» ـ هل هو الرجل الذي قضيت معه ذلك الأسبوع؟»

«هل هناك فائدة من الإنكار؟»

«لا أظن ـ إن «باركلاي» كفء جداً».

«لا بد أنه ذلك الشخص المجهول الذي كان في المطعم الليلة الماضية».

«نعم أظن أنك تستطيعين أن تصفيه بذلك الوصف. كل المخبرين الخصوصيين يجب أن يكونوا كذلك ـ أشخاصاً مجهولين. لأن مهنتهم تتطلب ذلك فمن غير المفيد لهم أن يلاحظهم الناس».

«نعم أظن ذلك».

«ولكن لم تجديه».

«لا».

«هذا ليس غريباً بما أنه موجود هنا في «لندن»».

حدقت عينا «إيلين» فقد خطر لها خاطر.

«هل تعرف أين هو في «لندن»؟»

«ربما أعرف».

واعتدلت «إيلين» في جلستها.

«أوه يا والدي أرجوك ـ أين هو؟»

قطب والدها.

«ماذا أخبرك؟»

«أرجوك».

«حسناً سأخبرك ـ إنه في شقة خاصة».

«كيف عرفت ذلك؟»

«باركلاي أذكى منك قليلاً يا عزيزتي. سأل في مكتب البريد عن العنوان الذي ترسل إليه مكاتيبه».

وأطلقت «إيلين» تنهيدة.

«يا إلهي! لماذا لم أفكر في هذا؟»

«أشك في أنهم كانوا سيخبرونك. من المحتمل أن بطاقة المخبر الخاص تبدو رسمية لهذه الدرجة».

وهزت «إيلين» رأسها.

«لا بد أن أراه».

«لا أظن أن هذه فكرة حسنة».

«لا تظن؟»

والتفتت «إيلين».

«يا أبي ـ إذا لم تخبرني أين هو سأخرج من هذا المنزل ولن تراني ثانية».

«إيلين! إيلين! بحق السماء لا تتصرفي كطفلة غبية. ماذا يعني هذا الرجل

«لا يزال بالنسبة إليك؟ وماذا تعنين بالنسبة إليه؟ كيف تعرفت عليه؟»

«إذا أخبرتك هل ستخبرني أين هو؟»

أخذ والدها نفساً ثم أجاب:

«حسناً.. بشرط أن تخبريني بالحقيقة كلها.»

ترددت «إيلين» ثم غاصت في كرسيها وأخذت تحكي بعض الأحداث التي أدت للقائها «بدومينيك».. أخبرته عن العاصفة الثلجية وتوقف سيارتها ثم الظروف المزعجة التي أدت لذهابها معه إلى منزله.. ثم كيف كان وجهه مألوفاً لديها وكيف تعرفت عليه.

في هذه النقطة قاطعها والدها قائلاً:

«هل تقصدين أن هذا الرجل هو «دومينيك لايرل» بطل السباق؟»

وكان يبدو مذهولاً.

أكدت «إيلين».

«[illegible]»

«إيلين.. [illegible]»

وهز رأسه.

«آسف.. استمري.»

استمرت «إيلين» بحماس أكبر الآن بعدما شعرت أن عداء والدها قد خف. خفّ ما بالطبع كان معجباً «بدومينيك لايرل».. هل من الممكن أنه ما زال معجباً به؟

لم تذكر التفاصيل في علاقتهما وإن كانت قد لمحت إلى ما حدث. وعندما أنهت قصتها قطع الصمت والدها محدثاً صفيراً.

«يا إلهي، أي موقف!»

«والآن هل تفهم لماذا لم أستطع أن أخبرك؟»

«كان يمكن أن تثقي بي.»

«هل كنت أستطيع ذلك؟»

ونظرت إليه «إيلين» بشك فبدا عليه الخجل.

«هل أزيدك بعض الثقة؟ ألا تثقي بي.. ولكن يا «إيلين» «دومينيك لايرل» لا بد أنه بلغ الأربعين عاماً تقريباً.»

وأطرقت برأسها.

«أظن أنه بلغ الثامنة والثلاثين ولكن ما أهمية ذلك؟»

هز والدها رأسه مرة ثانية.

«إنه كبير بالنسبة إليك. إلى جانب أنك تقولين إنه كسيح.»

«أوه يا والدي أرجوك لا تستعمل هذه الكلمة.. إن به عرجاً فقط. هل تظن أن هذا يهمني.. حتى لو كان سيقضي حياته على كرسي فإنني سأستمر أحبه.»

ذهب «فيليب» ليسكب لنفسه كأساً.. وعندما رفع الكأس في سؤال صامت هزت رأسها بالنفي.

«لا، أشكرك. لا أريد. والآن هل ستخبرني أين هو؟»

«حسناً.. حسناً.»

ابتلع والدها شرابه كله ثم قال:

«هل تظنين أنه ما زال في المستشفى؟»

«لا.. هل تعلم أنت؟»

«لا، إن أخبارنا لم تصل إلى هذه الدرجة، وقد طلبت من «باركلاي» أن يتوقف حالاً.»

«الحمد لله.»

«ماذا تعنين؟»

«أوه.. يا والدي.. ماذا سيكون شعوره إذا اكتشف أنك كنت تتجسس عليه؟»

«يجب أن أخبرك.»

«لقد أخبرتني.»

«وأنت تعلم ما أعنيه.»

ابتسمت «إيلين» بعض الشيء.

«يا والدي أخبرني أين هو.»

«حسناً.»

www.liilas.com

سحب والدها بطاقة من جيبه الداخلي:

«هذه هي العيادة ـ مديرها هو الدكتور «جورج دومينكس». لا أعرف شيئاً عنه سوى أنه مشهور بأنه أخصائي جراحة عظام».

فاستمعت أذن «هيلين».

«أخصائي جراحة عظام؟ هل تظن أنه دخل هذه العيادة لإجراء عملية جراحية في ظهره؟»

«كيف أعلم؟ إذا كنت مصممة على رؤيته أقترح أن تمضي وتري بنفسك».

فوافقت «هيلين» وقد أصابها التوتر.

«نعم ـ نعم سأفعل ذلك».

واتجهت نحو الباب.

«أشكرك يا والدي».

وأحنى «فيليب» كتفيه بحزن:

«لا تشكريني ـ أنا لا أعد بشيء ـ ولكن إذا كانت رؤية ذلك الرجل ستعيدك إلى الحياة فأنا مستعد لذلك».

ترددت «هيلين» لحظة وهي تريد أن تضيف شيئاً ولكنها هزت رأسها وانصرفت.

وكانت عيادة «دومينكس» في شارع «هارلي». كانت فيما مضى منزلاً فخماً أما الآن فإن طوابقه الثلاثة تحولت إلى مستشفى خاص، مجهز تجهيزاً فاخراً. صرفت «هيلين» سيارة الأجرة وصعدت السلم إلى الباب. ضغطت على جرس صغير. وقفت تنظر حولها بفضول محاولة ألا تفكر في الأسباب التي دفعتها إلى الحضور. وكانت الزهور تعطي جمالاً وتخفف الجو الرسمي في غرفة الاستقبال. وبدد عبيرها رائحة العيادة الطبية. وكانت الصالة التي يؤدي إليها السلم مغطاة بسجادة مخملية ناعمة. وحاولت «هيلين» أن تدعي أنها لا تختلف عن الفندق.

«هيلين».

قطع عليها تفكيرها هذا النداء المصدوم فاستدارت لتجد «بريت» ينزل السلالم القليلة التي تفصله عنها.

وقالت بصوت مهتز:

«أوه «بريت»! «بريت» هل «دومينيك» هنا؟»

كان «بريت» يبدو في شكل رسمي غير مألوف وهو يلبس حلة رمادية ولكنه عندما رأى القلق على وجهها قال بحنو:

«نعم إنه هنا».

واتجهت «هيلين» إليه وهي تنظر باستعطاف.

«كيف حاله ولماذا هو هنا؟ «بريت» هل أصابه التعب بعد أن عاني؟»

نظر «بريت» حوله.

«هل قابلت أي شخص في العيادة؟»

«لا لم يكن هناك أحد ـ ضغطت على الجرس ولكن لم يأت أحد».

ونظر «بريت» إلى ساعته.

«إنه موعد الشاي ـ الشاي يقدم للمرضى الساعة الخامسة. أظن أن الجميع مشغولون».

أشار إلى غرفة كتب عليها الزائرون.

«ادخلي هنا ـ ليس من المحتمل أن يكون أحد منتظراً في هذا الوقت».

لم يكن هناك أحد فعلاً في غرفة الاستقبال وأغلق «بريت» الباب وعندما رفضت «هيلين» أن تجلس كما اقترح سألها:

«ماذا تفعلين هنا؟»

تنهدت «هيلين».

«أريد أن أرى «دومينيك»».

«كيف علمت أنه هنا؟»

«إنها قصة طويلة ـ «بريت» أرجوك ـ أن تتكلم في الموضوع. لماذا أتى «دومينيك» إلى هنا؟»

دفع «بريت» يديه في جيبي بنطلونه وقال بحزن:

«قرر أن تجري العملية التي أرادوا إجراءها له بعد الحادث.

هل تفهمين... هل تفهمين أنه وافق على أن يزرع قطعة من العظم الصناعي في

فعلته.

وكانت هيلين مذهولة.

ـ أهو من هذا القبيل؟

ـ أوه يا برانت.

وضغطت يداها على خديها.

ـ ومتى ستجري العملية؟

ـ قريبة من أسبوعين.

ولم تستطع هيلين أن تصدق.

ـ بعد أسبوعين؟ ولكن هذا... كان هذا ـ

ـ بعد ذهابك مباشرة تقريبا.

ونظرت إليه هيلين باستغراب.

ـ لماذا قررت فجأة أن تجري العملية؟

نظر برانت إلى طرف حذائه.

ـ لا أعلم حقيقة.

وأمسكت هيلين بذراعه.

ـ أنا لا أصدقك! لابد أن جوسيلين ناقشتك في الأمر.

وقال برانت بهدوء

ـ وهل هذا يدهشك؟

لمعت عينا هيلين.

ـ أظن ذلك ـ إني أحبه.

هز برانت رأسه.

ـ هل هذا غريب؟

ـ نعم نعم ـ حسناً إذا كنت لا تريد أن تخبرني لماذا أجرى العملية على الأقل أخبرني إذا كانت قد نجحت.

وتنهد برانت.

ـ إذا أخبرتك يجب أن تعديني بألا تخبري به أحداً قط.

ـ بالطبع.

قطبت هيلين جبينها بقلق ـ شعرت من نغمة صوته أن الجواب سلبي

واعترف رغماً عنه

ـ إذن فالجواب لا ـ لم ينجحوا.

وتهدلت كتفا هيلين.

ـ هل تعرف السبب؟

ـ لا أعرف الكلام الطبي. ولكن أساساً يبدو أنه إذا تركت العظمة تلتحم بدون إصلاح فإنها تصبح مصدراً دائماً لتشويه المفاصل الأخرى. وفي هذه الحالة أظن أنه انقضى الوقت بين الحادث وبين محاولة العلاج إلى أن يصبح الموقف أكثر صعوبة.

ـ أوه يا برانت.

وشعرت هيلين بشعور غامر بالعطف على الرجل الذي أحبته.

ـ أوه أين هو؟ يجب أن أراه.

فتنهد برانت.

ـ لا أعرف إذا كان سيوافق أن يراك يا هيلين.

ـ ولم لا؟

ـ أظن أنك تعلمين لم لا.

وسارت هيلين إلى الباب وقالت بوضوح

ـ سأذهب لأراه ولن يمنعني أحد.

عندما خرجت إلى القاعة مرة أخرى وبرانت وراءها، كانت الممرضة أمام مكتبها ونظرت إلى هيلين باستغراب وأخذ برانت يشرح

ـ هذه صديقة السيد لايول. هل يمكن أن تراه الآن؟

وشعرت هيلين بامتنان شديد لبرانت لتدخله. كان تعريفه لها يجعل وجودها أسهل. فابتسمت الممرضة ووافقت قائلة إنه لا مانع من ذلك. وفتحت الممرضة الشابة الباب وقالت بمرح

ـ إن لك زائرة يا سيد لايول ـ تفضلي يا آنسة جيمس.

وبقيت «هيلين» على من الخوف وهي تتوقع أن يأمرها «دومينيك» بالخروج. لكن رغم أنه لم يبتسم لم يقل شيئاً يحرجها قبل خروج الممرضة من الغرفة. كان يجلس في السرير الضيق ويلبس بيجاما من الحرير الأحمر الغامق. لم تستطع «هيلين» أن ترفع بصرها عنه. كانت تشعر أنها لم تره من مدة طويلة، وأنها مشتاقة لرؤيته رغم أنها لم تره من ثلاثة أسابيع. لم تلاحظ الغرفة الجميلة ذات السجادة الزرقاء والستائر وغطاء السرير ذا اللون الأزرق أيضاً، والتي تختلف عن أي غرفة في مستشفى عادي. وبعد خروج الممرضة ترددت «هيلين» فجأة عندما سمعت صوته وقد امتلأ بالغضب والسخرية.

«كيف بحق الجحيم وجدتني هنا؟»

ترددت باضطراب لم تثبت:

«هالو «دومينيك»! كيف حالك؟»

كان وجهه يعكس الضيق الشديد الذي يشعر به لتغاصي قلبها في صدرها.

«هل أرسل «برلنت» ورائك؟»

«لا، بالطبع»

اقتربت من السرير. كانت مشتاقة لتلمس يده السمراء. ونظرت إليه وهي تتذكر عندما عانقها بين يديه وكانت تشعر بقربه، وتمنت لو احتضنها مرة أخرى -

ثم قالت:

«دومينيك. ذهبت إلى «فركسمور» و... وعلمت أنك جئت إلى «لندن»

«ماذا ذهبت إلى «فركسمور»؟»

للحظة تغلب شعوره على غضبه، فأجابت بانفعال:

«أردت أن أراك مرة ثانية.»

وانبرت لمقاطعته.

«ماذا؟ لماذا؟»

«دومينيك، إنك تعلم لماذا.»

لم تستطع أن تكمل كلامها... مدت يدها لتمسك بيده، ولكنه سحبها بعيداً وقال بمرارة:

«أظن أنك ترتكبين خطأ. أوضحت لك الموقف بما فيه الكفاية من عدة أسابيع ماضية. لا يوجد بينك وبيني أي شيء»

حبست «هيلين» أنفاسها

«أنا لا أصدق ذلك»

«لا يهمني إذا كنت تصدقيه أم لا»

وقطب حاجبيه

«كيف وجدت هذا المستشفى؟ أنا لم أخبر أحداً إلا «برلنت»

«ليس «برلنت»

وتكلمت «هيلين» بعصبية

«إذا كان لا بد أن تعرف فقد استأجر والدي من يتبعني»

«هذا [illegible]؟»

وبدأت تبكي

«استأجر والدي مخبراً خاصاً ليتبعني. أعرف أنه من شخصية والدي. حاول أن يجبرني عندما عدت أن أخبره أين كنت»

«ماذا لم تخبريه ببساطة أنك كنت تعيشين في الكوخ؟»

«فعلت ولكنه كان قد اتصل بالفندق الذي ذكرته وعلم أني غير موجودة فيه وبعد ذلك...»

وصدرت عنها حركة تعبر عن الاستسلام

وأطبقت يدا «دومينيك»

«وأظن أن ذلك المخبر وجد المكان؟»

«نعم»

تنهدت «هيلين» وقالت:

«لكن والدي لم يعرف من أنت إلا... إلا عندما أخبرته»

ضاقت عينا «دومينيك»

«وأنت أخبرته؟»

«نعم اضطررت إلى ذلك رفض أن يخبرني أين أنت إلا إذا... إلا إذا...»

وحدّق «ميرديث» في الوجه الناظر.

«هل أنت متأكدة أن هذه هي الحقيقة كاملة؟»

«طبعاً نعم.»

«حسناً.. هل أنت متأكدة أن الخبر لم يذهب إلى «هاركستون» واكتشف أني في المستشفى؟ لم أستطع البقاء.»

بدا على «جيليان» عدم الفهم.

«ماذا؟ لا أفهم.»

ونظر إليها مرة أخرى.

«ماذا؟ ألا تفهمين؟ ألم تستدعي أبي في المستشفى الأسبوع الماضي؟»

«ماذا.. حسناً نعم.»

«فعلت ذلك.. وهل فكرت أني فعلت ذلك من أجلك؟»

«لا.. أنا..»

لكنها كانت قد فكرت في ذلك. خطرت لها هذه الفكرة بشكل غير محدد بعدما تكلمت مع «برات» وكان يبدو ذلك على وجهها.

ثم سألت:

«مع من تحدثت منذ مجيئك إلى هنا؟»

«مطلقاً.. لا أحد.»

«حسناً.. أنا لا أريدك أن تناقشي أموري مع أي شخص.. هل تفهمين؟ أموري لا تخصك. أنا آسف لأني أخيب أملك ولكن عندما أخرج من هنا ليس لدي النية في أن أستعمل حريتي المستعادة في البحث عنك.»

«حريتك المستعادة؟»

«بالطبع.. إنك لا تعرفين. أليس كذلك؟ لقد نجحت العملية نجاحاً كاملاً. وسأصبح شخصاً جديداً تماماً بعد بضعة أشهر ولكنك لن تكوني موجودة للمشاركة في الاحتفالات وسأرسل إليك بطاقة من «فلوريدا» أو «جامايكا» أو أي مكان آخر.»

ابتسمت «جيليان» في الحال. ما الذي يقوله؟ العملية نجحت في تصحيح ظهره!

ولن يعرج عندما يخرج من المستشفى؟ ولكن «برات» قال إنها فشلت وإن التشوه لا يمكن علاجه!

وشعرت بالدوار. لا بد أن أحداً منهما يكذب.. ولكن أيهما؟ وفي أي حال هل يهم ذلك «ميرديث». لا يريدها. أوضح ذلك تماماً. يجب أن تخرج من هنا وكلما أسرعت كان ذلك أفضل.

ونظرت إلى الباب. كان يبدو بعيداً ولكنها تستطيع أن تمالك نفسها حتى تخرج. يجب ألا تنهار أمامه.

وتحركت بعدم ثبات وعندما وصلت إلى الباب ووضعت يدها على المقبض قال:

«لا تتركي الغرفة والشك يحويك. أنا متأكد أنك عندما تخبرينه بما حدث سوف يسعده الاحتفاظ بهذه المعلومات لنفسه.»

ونظرت إليه «جيليان» نظرة أخيرة. إنها لن تفكر فيه بعد اليوم.

١٠ ـ هالو هيلين!

شعرت بالارتياح لأنها لم تقابل «بول» وهي خارجة من المبنى.

أشارت لسيارة أجرة وهي في حالة أقرب إلى الذهول، وأعطت السائق عنوان منزل والدها ولكن في منتصف الطريق غيرت رأيها وطلبت منه أن يأخذها إلى شاطئ النهر ـ ولاحظت أن السائق ينظر إليها بطريقة غريبة عندما أعطت له أمره، وفكرت بطريقة هيستيرية أنه يعتقدها ستنتحر.

راودتها هذه الفكرة وهي تنظر إلى المياه القاتمة أسفل الجسر. كانت تعلم أن والدها ينتظرها في المنزل الأمر الذي ملأها بالاكتئاب. لم تكن تريد الكلام عن المشهد الذي حدث بينها وبين «دومينيك» ولكن لم يكن أمامها مخرج.

أخذت تتجول بلا هدف بينما حركة المرور على أشدها ثم دخلت مقهى وطلبت بعض الشاي. الساعة حوالي السابعة مساء عادت إلى المنزل. وعندما توقف التاكسي أمام الباب قفز والدها هابطاً السلم وذهب ليساعدها ثم قال قلقاً وهو يمسك ذراعها:

ـ أين حباً لله؟ هل تريدين أن أصاب بأزمة قلبية؟

وارتعش فمها. كانت تشعر دائماً أن والدها قوي لا يقهر.

وبدأت تقول:

ـ آسفة إذا كنت سببت لك القلق.

ولكنه قاطعها بحدة:

ـ طلبت طبيبتك؟ هيلين ـ هل تلاحظين أنك تركت العيادة منذ أكثر من ساعة ونصف؟

وقالت بتعب:

ـ أظن أنك اتصلت تليفونياً.

ـ طبعاً اتصلت تليفونياً ـ أين كنت؟

ـ مشيت أركض سيراً على الأقدام ـ على شاطئ النهر.

ـ شاطئ النهر!

واسترخى قليلاً:

ـ يا إلهي ـ هيلين. هل كنت تفكرين ـ

واعترفت بهدوء:

ـ نعم ـ فكرت ـ أوه يا أبي! إني تعيسة جداً.

وانفجرت باكية.

بعد حوالي ثلاث ساعات دق جرس الباب في منزل «جيمس» في ميدان «بلز بارك». كانت «هيلين» في فراشها لكنها لم تكن نائمة رغم أن والدها أعطاها بعض الأقراص المنومة قبل أن يخرج مع «إيزابيل» إلى العشاء.

منذ عودتها إلى المنزل هذا المساء أخذت تراجع رأيها في والدها ـ كان طيباً ورقيقاً ومتفهماً ـ وأدركت أنه في الحقيقة مهتم بسعادتها كأي أب آخر.

وعندما دق الجرس مرة أخرى جلست في فراشها ونظرت إلى ساعتها. كانت الساعة حوالي العاشرة والنصف. من الذي تحتمل أن يأتي في مثل هذه الساعة من الليل؟ إلا إذا وقع حادث لوالدها وزوجته. خرجت من فراشها وارتدت ثوباً من الشيفون الأخضر الشفاف فوق قميص نومها. لم تكن «بيتي» موجودة.

وركضت هابطة السلم واجتازت القاعة ثم فتحت الباب نصف فتحة ونظرت فاغرة دهشة. كان «دومينيك» يقف على عتبة الباب ويستند بثقل على عصاه وقال:

ـ هالو «هيلين» ـ هل أستطيع الدخول؟ أريد أن أتحدث معك.

خطوط الإجهاد التي رأتها من قبل حول فمه تبدو أكثر عمقاً.

فتحت الباب ثم وقفت وراءه تخفي نفسها وهو يعرج إلى الداخل. انتبهت في هذه اللحظة فقط أن ملابسها شفافة أكثر من اللازم. فقالت بسرعة:

«سأذهب لأرتدي بعض الملابس»

«لا»

مد يده وأمسك بيدها وهي تمر بجانبه ثم نظر إليها نظرة فاحصة قائلاً:

«لا. لا تذهبي ـ إنك تعجبينني كما أنت»

واحمر خداها.

«دومينيك»

«هل هناك مكان يمكن أن نتكلم فيه»

أجفل عندما اخترقته نوبة من الألم وقال:

«هل أستطيع ـ أن أجلس»

«بالطبع ـ بالطبع. هل تريد أن تستند علي»

اتسعت عيناها ـ كانت قلقة عليه. ولكنه هز رأسه قائلاً:

«لا أظن أن هذا ضرورياً»

ولكنها لاحظت أنه يستند بثقل أكبر على عصاه وهي تقوده إلى غرفة الجلوس.

وأضاءت النور ثم وقفت بعيدة إلى جانب الباب بينما سار هو نحو الأريكة الواسعة وجلس عليها بارتياح ظاهر ثم استدار لينظر إليها ومرة أخرى شعرت بالفرح. وقالت بإصرار:

«لا بد أن أذهب لأرتدي ملابس أخرى»

هز كتفيه العريضتين:

«حسناً إذا كنت تريدين أن تكوني محتشمة. ولكن لديّ فكرة جيدة عن جسم الرداء.»

فحدقت فيه جيليان وقد نسيت موضوع مظهرها ثم سألت باضطراب:

«لماذا... لماذا أتيت إلى هنا»

استرخى على الوسائد وقد بدا على وجهه النحيف شيء من السخرية بعد أن استراح من هذا المشي. وفكرت بيأس أنها لن تتعب أبداً من النظر إليه. إلى ملامحه السمراء وشعره الفضي الكثيف الذي يسقط باستمرار على جبهته وفمه الذي تبدو فيه الرقة.

«تعالي وسأخبرك»

ولم يكن في صوته أي سخرية الآن.

فتفحصت جيليان قليلاً ثم توقفت ـ وقالت مرة أخرى:

«دومينيك...»

لكنه مال إلى الأمام وسحبها من يدها وجذبها إليه وعانقها لم يتركها إلا بعد مدة طويلة. شد نفسه واقفاً ونظر إليها قائلاً:

«ليس هنا يا جيليان ـ هل تريدين أن يعود والدك إلى المنزل فيجدنا نتبادل القبل»

واحمرت جيليان كأنها في غيبوبة.

«لا يهمني...»

ورفعت يدها تتلمس خده.

«أوه يا دومينيك إني أحبك»

أمسك دومينيك يدها وأخذ يقبل راحتها قائلاً:

«جيليان، هل أنت متأكدة أنك تعلمين ما تقولين»

هزت رأسها بالإيجاب. ثم قامت مستندة على مرفقيها وعيناها تطرفان ـ إن شيئاً ما لا بد أنه قد لفت نظرها ـ فقالت:

«دومينيك ـ هل طلب منك والدي أن تأتي إلى هنا»

فترك دومينيك يدها واعتدل في جلسته.

«لا بالعكس ـ لا أظن أنه يرحب بي كزوج لابنته مثلما قلت الآن»

قال بسخرية:

«أنا متأكد أنك سمعتني جيداً ـ أوه يا جيليان إني أحبك ـ أنا متأكد لا بد أنك أدركت ذلك الآن»

«أنك تحبني»

ارتعشت شفتاها وارتعش كل جسمها بعاطفة أقوى منها

«أوه يا دومينيك. دومينيك. لماذا لم تخبرني»

وألقت نفسها بين ذراعيه ودفنت وجهها في عنقه وقد سالت دموع السعادة والارتياح على وجهها.

«ما هذا؟»

وقال وهو يبعدها عنه.

«هناك الكثير لنتكلم عنه ولكنا إذا بقيت هكذا لن نستطيع الكلام».

فقالت وهي تمسح دموعها وأنفها:

«حسناً - قابلت والدي - أليس كذلك؟»

«نعم رأيت والدك وكان مهتماً جداً بأمري بالنسبة إليك. وإذا أظهر شعوره فإنه كان يأمل أن تجدي شخصاً يناسبك أكثر مني كزوج».

ووضعت يدها على فمه.

«لا تكمل - أنا لا يهمني ما يأمل - إني أحبك أنت و... ولقد أخبرني بولت عن العملية».

قال بخشونة.

«نعم، أعلم ذلك الآن».

نظرت إليه.

«كيف؟»

«كيف تتصورين؟ اعترف بولت».

«أرجو ألا تكون قد غضبت منه».

«ماذا تظنين؟»

وشدها ثانية دومينيك إليه.

«يا إلهي حاولت يا جيليان أن أنكر نفسي هذا حاولت. لقد أخذت أكرر لنفسي أنني يجب ألا أربطك بشخص كسيح بقية حياتك... ولكن هذا انتهى».

هز رأسه ودفن وجهه في عنقها وشعرت بجسمه يرتعش.

«عندما أخبرني بولت أنك كنت تعلمين قبل أن تحضري لرؤيتي...»

وأمسك بوجهها بين يديه.

«لقد ظننت حقاً أنك لم تحضري إلا عندما علمت أني سأصبح طبيعياً».

وألقت جيليان ذراعيها حول عنقه.

«إنك طبيعي، أنت يا دومينيك... حتى إنه لا يتوقف على كونك تسير بعرج أو بدون عرج... أنا لا يهمني هذا... أنا أحبك...»

وارتعشت شفتاها.

«رغم أني لا أعلم لماذا بعد الطريقة التي عاملتني بها».

«هل كنت بهذا السوء كل الوقت؟»

«لا، ليس كل الوقت».

وأطرقت وقد احمرّ خداها واعترفت له قائلة:

«كنت أظنك ستطردني على نفس ذلك اليوم في غرفة النوم - ما كان يجب أن أتركك تفعلين ما فعلته».

وضحك من خجلها.

«تعديني أنك ستفعلين ذلك مرة أخرى عندما نتزوج».

«كل يوم إذا شئت».

ولكنه هز رأسه.

«لا أظن أن بولت يجب أن يبقى في عمله حالياً إذا كان هذا لا يضايقك».

«بالطبع لا».

ثم أخذت نفساً عميقاً - كان كل شيء جميلاً لدرجة لم تستطع تصديقها.

«هل يمكن أن نعيش هنا حيث تعيش؟»

«إنه بعيد جداً عن لندن».

«وماذا في ذلك؟»

«حسناً ألا تريدين أن تكوني أقرب المدينة؟ أقصد...»

«هل تريد أن تعيش هنا في لندن؟»

«جيليان - أريدك أنت إذا كان هذا ما ترغبين...»

«ولكن ماذا عنك أنت؟ أنت لا تريد حقاً أن تعيش هنا أليس كذلك؟»

«أنا لا أريد أن أبعدك عن أصدقائك وأسرتك».

فقالت ببساطة.

«وأنا أحب العيش في منزل الشيرونت ـ ليس لديّ ما أفعله أكثر من ذلك»

وسكت دومينيك لحظات ثم أبعدها عنه بإصرار قائلاً:

«قد يكون من الأفضل يا هيلين أن ترتدي ملابسك لأني أنوي الانتظار حتى أكلم والدك ولا أريده أن يصدم من خبر قد لا يرضيه»

وبعد ستة أشهر من ذلك كانت هيلين تهبط السلم في ذلك المنزل قرب هوكسبير وكانت الشمس تغمر تلك الأمسية. كانت تعلم أنها تبدو جميلة وخاصة في ثوبها الطويل الحريري الوردي الذي يخفي حملها عن أقرب المحيطين. ونظرت أسفل السلم لكن والدها وزوجته لم يظهرا بعد. كان دومينيك يقف قرب المكتب يعد بعض المشروبات عندما دخلت. وكان يبدو نحيفاً وجذاباً وهو يرتدي سترة قاتمة اللون. كان قد شفي تماماً من العملية وأصبح الآن لا يحتاج العصا التي كان يستعملها في البداية. نظر إليها نظرة ناقدة وترك ما كان يفعله وذهب إليها واحتضنها بين ذراعيه. وقال:

«إنك تبدين جميلة جداً هذا المساء.. هل ستخبرينهم؟»

وسحبت هيلين نفسها وهي تبتسم

«إنهم سيكتشفون أخيراً بعد خمسة شهور! هل تظن أني يجب أن أفعل؟»

فقال وهو يبدو مسروراً

«قد لا تحتاجين إلى ذلك. أنا متأكد أن إيزابيل خمنت. ألم تلاحظي الطريقة التي كانت تنظر بها إليك بعد وصولهم مباشرة؟ إن البنطلونات والملابس الواسعة مازالت تبدو عادية عليك ولكن هناك شيئاً ما في مظهرك. لا أعرف ما هو..»

ربتت هيلين على خده:

«هل يضايقك هذا؟»

احتضنها بشدة أكثر ودفن رأسه في عنقها وهو يقول:

«حقيقة كنت أفضل أن أحتفظ بك لنفسي مدة أطول.. ولكن أظن أني المسؤول..»

وأمسك بها بشغف.

«أنا لا أستطيع أن ألومك.. لم تتخذ أية احتياطات»

ولفت هيلين ذراعيها حول عنقه وقد أصبحت لا تحرج لما يقوله.

«ما أظن أن بوات سيكون مرتاحاً لهذه الزيارة»

ورفع دومينيك رأسه بحنين:

«يا للعنة.. أظن أن أصطحبهم للعشاء.. فلنا مدة في المنزل.. أنا لا أحب أن يشاركني أحد فيك»

وتنهدت هيلين برضى

«يا عزيزي.. قضينا أربعة أشهر سعيدين ومن الطبيعي أن والدي يريد أن يطمئن إلى أني سعيدة»

«وهل ستقولين له أني أضربك؟ أني أجعلك تعيسة؟»

وقالت وهي تفرد ذراعيها

«وهل تظن أنه سيصدقني في هذه الحالة؟»

استقرت نظرة دومينيك على بطنها

«لا أظن»

ثم قال بسخرية

«من حسن الحظ أن شيبا ليست هنا الآن. وإلا لأثارت بعض المشكلات»

وضحكت هيلين.. ثم سمعا طرقة على الباب فاستدارت وقالت:

«ادخل يا بوات»

دخل الخادم الضخم الغرفة على استحياء. ولكن الابتسامة العريضة التي نظر بها إلى هيلين كانت أبلغ تعبير عن موافقته.

وسأل بأدب:

«في أي وقت أقدم العشاء يا سيدي؟»

ونظر دومينيك إلى ساعته

«أظن بعد حوالي نصف ساعة يا بوات.. أشكرك أيضاً على تذكيرك يا بوات هل أنت ماهر في غسيل ثياب الأطفال؟»

ارتفع حاجبا بوات الكثيفان في دهشة

«أنا.. أنا.. أنت لا تقصد..»

وقالت هيلين وهي تتجه نحوه باسمة:

ـ نعم، ونحن نريدك أن تكون أول من يعرفه.

وبدا عليه السرور الشديد.. وصاح:

ـ أنا سعيد جداً.

ثم [illegible] على يد دومينيك [illegible] دومينيك كأساً ورفع

نخب هذا الكأس أنا لا أستطيع أن أقل [illegible]

رفع بول الكأس وقال بحرارة:

ـ إلى الجيل الجديد من أبناء لابول.

وشرب دومينيك معه هذا النخب.

www.liilas.com

The End